القرن الخامس عشر

1 – أحمد حسن الباقوري

2 – عبد الرحمن الشرقاوي

3 – محمد الغزالي

4 – خالد محمد خالد

5 – محمد متولي الشعراوي

6 – يوسف القرضاوي

7 – أبو الأعلى المودودي

8 – أبو الحسن الندوي

9 – وحيد الدين خان

10 – أحمد عمر هاشم

1

هذا القرن

يبدأ القرن الخامس عشر الهجري في 9 نوفمبر عام 1980 حسب التقويم الميلادي ، أي : أننا قطعنا من هذا القرن (الخامس عشر الهجري) ما يزيد – تقريبا – عن ربعه ، وفي هذه الفترة الزمنية يمكن أن نتبين ملامح بعض التغيرات في الأحوال السياسية والعلمية والاجتماعية يمكن الإشارة إليها ، آملين أن يتغير بعضها في قابل الأعوام إلى الأفضل إن شاء الله .

فمثلا : نجد في الأحوال السياسية على مستوى العالم تفككا للكيانات الدولية التي كانت تتضمن في داخلها مجموعات من الدول ، فلم تعد هناك في العالم الإسلامي الدولة العثمانية في تركيا أو المغولية في فارس ... أو غير ذلك مما أصبح في ذمة التاريخ ، كذلك انتهت إلى حد كبير الحرب الباردة بين القوتين العظميين : الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي ؛ بسبب تفكك الاتحاد السوفيتي إلى دول كانت في داخل الفلك الشيوعي أو الاشتراكي . ومن هذه الدول ، عدد من الدول الإسلامية في قارة آسيا ، وذلك بعد أن نشر الرئيس السوفيتي الأسبق «جورباتشوف» كتابه المسمى (بالبرستوريكا) وما يتضمنه من هذا التفكك للاتحاد السوفيتي . وكان نتيجة ذلك انفراد الولايات المتحدة بإدارة العالم ، وقد تعاقب على هذه الإدارة الأمريكية للعالم عدد من الرؤساء الأمريكيين ، إلى أن تولى جورج بوش الابن هذه الإدارة عام 2000 ميلادية ليجيء بفكرة صورها له خياله المريض – كنوع من الخزعبلات أو التخريفات التي لا تستند على العقل – مؤدى هذه الفكرة أنه إنما جاء للقضاء على الشر الذي عم وساد أرجاء الكرة الأرضية ! ويرى هو وحزبه من

المحافظين ومن يساندهم من اليهود والصهاينة الذين يكنون عداء أزليا للإسلام والمسلمين ، أن هذا الشيء يكمن في دار الإسلام أو بلغة العصر الحديث داخل الدول الإسلامية التي تعتبر بؤرة لذلك الشر !

وطبيعي .. وقد وصل تفكير الولايات المتحدة إلى هذا الحد غير المعقول أن يعمل رجالها والساسة منهم على القضاء عليه ، ونقرأ تعبيرات عجيبة أتت بها هذه الإدارة الأمريكية على طريقة أفلام الكاوبوي منها : محور الشر الذي يتكون – في رأي هذه الإدارة – من دول إسلامية بعينها منها : إيران وسوريا والسودان وليبيا قبل أن تعلن ندمها على ما فعلت ، وأنه ليس لديها ما يقلق الولايات المتحدة من أسلحة دمار شامل ، على الرغم من أنها لم تملك أصلا هذه الأسلحة في يوم من الأيام، وقبل هذه الدول العراق وأفغانستان، وهذا كله على حد زعم بوش وإدارته ، وبالطبع يزكي هذا الزعم ويدعمه اليهود والصهاينة في الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث يخدمهم ذلك أولا في السيطرة على البيت الأبيض الأمريكي وما يصدر عنه من قرارات ، إلى جانب ذلك يخدمهم في موضوع الصراع العربي الإسرائيلي ، بوصف أن هذا اللوبي اليهودي الصهيوني يمتد إلى تل أبيب بإسرائيل .

ثم ينتهز الرئيس الأمريكي بوش الابن ما حدث في 11 سبتمبر 2001 من تدمير لبرجي التجارة العالمي في نيويورك، وأجزاء من وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاجون» ليهتبلها فرصة حيث يوجه الاتهام إلى الإسلام والمسلمين ، بأن هذا الدين ونفرا من رجاله هم الذين قاموا بهذه الكارثة التي راح ضحيتها الآلاف ، ولم يسأل نفسه إذا كان هناك نفر من أية ملة أو دين قام بهذا العمل فإنه لا يعني ذلك اتهام هذه الملة كلها أو ذاك الدين وأتباعه . هذه واحدة ، وأما الأخرى فهي تتعلق بما كتبه بعض الكتاب الأوروبيين ، بل والأمريكيين أنفسهم ، من أن ما حدث في نيويورك وواشنطن هو بفعل مؤامرة كبرى ربما قامت بها الجماعات اليهودية والصهيونية هناك، ودليلهم على ذلك أن العاملين في برجي التجارة العالمي من اليهود غادروا

هذين البرجين قبل أن يقع الانفجار ، بل لقد وصلت التحليلات السياسية لهذه الكتابات إلى أن هذا العمل تم داخل مطبخ السياسة الأمريكية لتحقيق بعض الأهداف السياسية والاقتصادية للإدارة الأمريكية في العالم الإسلامي وفي مقدمتها : الاستيلاء على بترول الدول الإسلامية .

وعلى أي حال .. فقد تم اتهام مقاتلي القاعدة بأفغانستان بالقيام بهذه العملية الانتحارية . وهنا يزداد العداء للإسلام ليس في داخل المجتمع الأمريكي الذي أصابه الضرر من هذه الانفجارات ، بل في كل أرجاء العالم ؛ حيث أصبح الإسلام والمسلمون في دائرة الاتهام ، وأن هذا الدين يحوي أعدادا كبيرة من الإرهابيين . وتتجاوز الإدارة الأمريكية كل الحدود حيث ترى بجهل فاضح أن في الإسلام أفكارا شريرة ، وطبيعي أن تشايع أمريكا في هذه الأفكار الشاذة بعض دول الاتحاد الأوروبي ، وفي مقدمتها بريطانيا ورئيس وزرائها «بلير» الذي أصبح تابعا أو ذيلاً - في سياسته الخارجية - للولايات المتحدة الأمريكية ، وإيطاليا ورئيس وزرائها السابق «برلسكوني» الذي يتهم الإسلام بالشر تأييدا لما تقوله الولايات المتحدة الأمريكية ، أملا في مساعدته على خوض الانتخابات ، التي يستمر بمقتضاها إعادة اختياره رئيسا لوزراء إيطاليا ، ولكنه سقط في الانتخابات ، واستبعد من الحكم ، ولم تنفعه الولايات المتحدة الأمريكية أو اتهامه للإسلام والمسلمين ، أو كما حدث في في عام 2006 لرئيس وزراء بريطانيا من المطالبة بإقالته واستبعاده هو وحزبه «المحافظين» من الحكم بسبب سياسته المؤيدة للولايات المتحدة الأمريكية ، أو حتى ما حدث للرئيس الأمريكي بوش نفسه الذي طالبت الأوساط السياسية والفكرية باستبعاده من الحكم ؛ لاتخاذه سياسة تسبب عنها قتل الآلاف من أفراد الجيش الأمريكي ، إلى جانب ضياع مئات المليارات من الميزانية الأمريكية دون تحقيق أي هدف استراتيجي يكون في صالح الولايات المتحدة الأمريكية .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد واصلت الولايات المتحدة الأمريكية ومن يشايعها من الصهاينة واليهود داخل المجتمع الأمريكي الادعاءات والأكاذيب لاتهام الإسلام والمسلمين بشكل لم يحدث له مثيل في التاريخ ، حيث أصبحت تخترع الأسباب والمبررات للعدوان على أي بلد إسلامي ؛ حيث تدعي بأنها خطر على الولايات المتحدة الأمريكية ، على الرغم من أن هناك آلاف الكيلومترات بين هذه الدولة وأمريكا مثلما حدث في العراق التي احتلته بدعوى أن رئيسه صدام حسين خطر على الأمن القومي الأمريكي ، ولذلك أسقطت حكمه في عام 2003 ، ودخلت بقواتها مدعمة بقوات من حلف الأطلنطي والاتحاد الأوروبي لاحتلال العراق معلنة أنها تفعل ذلك لتحقيق الأمن والأمان، الحرية والسلام، العدل والإنصاف ، السعادة والرخاء !؟ وكان نتيجة كل ذلك قتل العشرات في اليوم الواحد ، حتى يصل تعداد القتلى والمشردين والمحتجزين والمسجونين من العراقيين إلى الملايين ، ذلك لأنه لم يكن احتلالها للعراق وإسقاطها لنظام صدام حسين بل والحكم على رئيسه المخلوع صدام حسين بالإعدام شنقا، ولا لتحقيق الأمن والأمان، وإنما كان الهدف: السيطرة على مقدرات هذا الشعب المسلم ومخزونه من البترول العراقي الذي يؤول بعد ذلك إلى الشركات البترولية التي يمتلكها بوش ونائبه «ديك تشيني».

ولكن لا يحيق المكر السيئ إلا بصاحبه ، حين يتحول الموقف إلى عكس ما كانوا يتوقعون بفعل المقاومة العراقية ، وتصبح العراق مقبرة للأمريكان ومن يشايعهم ، حيث يقتل فيها الآلاف من خيرة أبناء القوات الأمريكية ، الأمر الذي جعل بعض الدول المشاركة في قوات حفظ السلام في العراق تنسحب ، معلنة أنه ليس لها في هذه الحرب ناقة ولا جمل ، وتنفرد أمريكا والبعض ممن يشايعها بتجرع مرارة الهزيمة ، والأكثر ضياع المليارات من الميزانية الأمريكية ، ويتأكد للأمريكيين أن بوش وشركاءه قد أوقعوا أمريكا في مستنقع لا مخرج منه إلا بسفك دماء الملايين وإنفاق مليارات من الدولارات . وسبحان الله ! هكذا ينقلب السحر على الساحر نتيجة لما يفعل ويصنع!؟

كذلك ، من هذه السياسات الفاشلة للولايات المتحدة الأمريكية التي تدير العالم، الكيل بمكيالين، في الصراع العربي الإسرائيلي، وذلك بمساعدة إسرائيل بلا حدود ضد العرب ، وقد نتج عن ذلك تأييدها وموافقتها لكل ما تصنعه إسرائيل من تقتيل وتدمير وتشريد فتغمض العين عنها، لكن حين يصاب أحد الإسرائيليين بمكروه نتيجة عدوانه ، فإن الدنيا تقف ولا تقعد ؛ فهذه جريمة نكراء ضد الإنسانية وما عداها من قتل وتشريد للمئات من الفلسطينيين واللبنانيين ، وتدمير منشآتهم وبيوتهم فهو أمر يدخل في إطار الدفاع عن النفس في رأي أمريكا !

والأمر نفسه يحدث في أفغانستان حين قتلت وشردت الآلاف إن لم يكن الملايين على أيدي الجندي الأمريكي ودولته التي تدير العالم ، وتسقط الحكومة الوطنية في كابول (طالبان) لتحل محلها حكومة تقبل بما تفعله أمريكا في أفغانستان كحكومة عميلة .

أو كما صنعت في العراق حين أسقطت نظام صدام حسين واعتبرته خطرا على الأمن الأمريكي ، وعينت بدلا منه حكومة عميلة من الأكراد ، والأكثر تعمل على بذر بذور الفتنة والشقاق بين العراقيين سنة وشيعة وأكرادا ، ويعلم الله كيف ومتى يلتئم هذا الجرح الغائر الذي أصاب العراق في مقتل !؟ وكل ذلك بفعل السياسة الأمريكية الرامية إلى نشر الحرية والديمقراطية في عهد بوش على ما تدعي !! فلا يحل بالعراق إلا القتل والدمار .

كذلك لم تحل القضية الفلسطينية بل تزداد تعقيدا ، ويضرب السلام على أرض السلام كل يوم . هذه القضية التي كانت في طريقها للحل قبل مجيء بوش والمحافظين ، وكل يوم لا نسمع سوى قتل العشرات وتدمير المنشآت وتشريد وسجن المئات، وكل هذا تحت شعار الديمقراطية والحرية والسلام وغيرها من أكاذيب تدعيها الولايات المتحدة الأمريكية ورئيسها بوش الغبي المخبول كما يصفه شعبه !

بل ويصبح العالم الإسلامي مستهدفا بلا سبب من بوش وإدارته ، بوش الذي لا يكف عن الادعاء بأنه ما جاء إلا لتحقيق الأمن والأمان ، الحرية والديمقراطية للعالم ، وأنه من أجل ذلك يستأصل بؤر الشر فيه ! وطبيعي أن تتأثر دول العالم الإسلامي بهذه السياسة الأمريكية الخرقاء ، خاصة وأنها تمثل القوة الوحيدة في العالم التي لا يراجعها أحد فيما تفعل أو حتى يحاسبها أو يقف ضد ما تصنعه من عربدة سياسية تكون نتيجتها التقتيل والتشريد والتدمير .

هذه الحالة السياسية تنعكس على ما عداها من أحوال اجتماعية وعلمية ؛ حيث يصبح النموذج الأمريكي هو الأفضل عند ضعاف العقول وصغار النفوس في المجتمعات الإسلامية ، مع أن الفرد في هذه المجتمعات لا يأمن في غده أو حتى يومه، ولا يضمن استقرارا داخل وطنه أو خارجه ، بعد السيطرة الغاشمة والمستبدة للولايات المتحدة الأمريكية على كل شيء ؛ حيث يستطيع أن يتضرر من سياستها المواطن العادي في المجتمع الإسلامي في عقر داره ، بل يتجاوز الأمر إلى أبعد من ذلك حين يصبح من حق أمريكا أن تزيل أنظمة ، وتقيم أنظمة وفق أسماء ومسميات منها : النظام العالمي الجديد ، والعولمة ... وغيرها ، وأن يحدث هذا وفقا لما يتماشى مع مصالحها وإستراتيجيتها خاصة في المجتمعات الإسلامية . مما تتأثر به الحالة الاجتماعية من بعيد أو قريب .

ولا تقل الحالة العلمية ارتباكا وحيرة إن لم يكن سوءا عن الحالتين السابقتين : (السياسية والاجتماعية) إذ كيف يكون الأمر على غير ذلك ، والإسلام - دينا ونظاما بل وعقيدة - مستهدف للتهجم والافتراء ؟ كيف يكون ذلك ونبي الإسلام عليه الصلاة والسلام يهاجم جهارا نهارا، من شذاذ الآفاق وحثالة الشعوب ممن كانوا في الأصل من صائدي الأسماك (المعروفين بالفايكنج) فيقوم واحد منهم في الدانمارك برسوم صور للرسول الكريم لا تراعي قدسية الأديان وأنبيائها ، ولا حتى حرمة الأموات !؟ بل تتجاوز هذه الافتراءات حدودها حين يتولى كبر الهجوم على

النبي ، وبأنه جاء بالشر على لسان بابا روما ! وكيف يكون ذلك والإسلام كنظام يتضمن العبادات والمعاملات والقوانين الشرعية يهدد كل يوم من أمريكا التي تدعي بجهل فاضح القيام بعملية التعليم والعلم الإسلامي بالمدارس والجامعات والمعاهد العليا ، في العالم الإسلامي ؟! بل وأخذت أمريكا من جانبها تطالب بعض الدول الإسلامية أن تطور ثقافتها وتعليمها كما حدث منها في أفغانستان حين طلبت ذلك من الإدارات العلمية والتعليمية ، أو ما حدث شبيه له في باكستان .

أقول : أمريكا تدعي كذبا بأنها تعمل على تجديد الفكر الديني في الإسلام لأول مرة في التاريخ ، مع أن ذلك حدث وتم على أيدي علماء الإسلام وفقهائه منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان ، كما يتضح من صفحات وفصول هذا الكتاب الذي تتم صفحاته بعون الله وتوفيقه بمثل هذه السطور . ولكن ما العمل وقد أصيبت الإدارة الأمريكية بالجهل الفاضح والغفلة التي ليس لها مثيل ؟!

والسؤال الآن : كيف يكون هناك أمن وأمان ، سلام واطمئنان ، حرية وديمقراطية في المجتمعات الإسلامية في ظل السياسة الأمريكية القائمة على عداوة الإسلام والمسلمين ؟! .. سؤال نترك للأيام الإجابة عليه .

يضاف إلى ذلك ما يصيب الإسلام من أبنائه أنفسهم ، في هذا المنعطف التاريخي الحاسم ؛ حيث تختلط الأوراق وتتداخل الأمور ، ونجد من ليس له دراية أو علم أو حتى خبرة في الدين يقوم بالفتوى فيه !! حيث تتحول القنوات الفضائية والأرضية إلى ملتقى وقبلة للإفتاء في الإسلام !؟ وممن!؟ من غير متخصصين تحولوا بقدرة حي قادر إلى علماء لا يشق لهم غبار في الدين ، كالفنانين والفنانات الذين اعتزلوا الفن ، فنراهم اليوم يدعون إلى المعروف وينهون عن المنكر ، ويفتون في كل شيء ، مما يجعل لهم ضحايا ممن ارتبط وجدانيا أو عقليا بهؤلاء المعتزلين ، والغريب أنهم يعودون إلى ما كانوا فيه قبل الاعتزال ، والله غفور رحيم .

كذلك ، نجد طائفة أخرى من مدعي الإفتاء تطل علينا في كل يوم من هذه القنوات الفضائية والأرضية ، وأغلبهم من غير المتخصصين ، وقد جاءوا لتحقيق الشهرة والمال في الحديث عن الإسلام ! .

وفي ظل هذا الوضع المتدهور نجد الأزهر وجامعته في صمت دائم حيال هذه الهجمة الضارية من الخارج ومن الداخل على الإسلام ونبي الإسلام ، فإذا كان لا يستطيع الرد على الذين يهاجمون الإسلام في الخارج ؛ لأن لذلك أسبابا ومسببات لا داعي من ذكرها ، فعلى الأقل عليه أن يقوم برد هذا الهجوم في الداخل ، أما أن يبقي الأمر على ما هو عليه ، ولا نسمع أو نقرأ موقفا حاسما للأزهر وجامعته ضد هذه الافتراءات ، فهذا هو غير المعقول ؛ حيث إن الأزهر وجامعته وهيئاته ومراكزه هي جميعها من أصحاب الاختصاص في هذا الأمر بالذات .

ولكن على الرغم من ذلك ، على الرغم من هذا الإحباط الذي يعم حياتنا في الربع الأول من القرن الهجري الخامس عشر في كل النواحي ، نجد هناك بروزا لثلاثة من العلماء الأجلاء أخذوا على عاتقهم مهمة التجديد في الإسلام هم : إمام أهل التيسير الشيخ «أحمد حسن الباقوري» ، والداعية المفكر الشيخ «محمد الغزالي» ، والداعية المستنير الذي ارتبطت به الجماهير الشيخ «محمد متولي الشعراوي» فلنقرأ معا آثارهم التجديدية .

الشـيخ الباقـوري

يعتبر الشيخ أحمد حسن الباقوري ، في مقدمة مجددي القرن الخامس عشر للهجرة حيث ولد عام 1325هـ وتوفى عام 1406هـ . فهذا العالم المستنير كان في إمكانه أن يكون من بين المجددين في ذلك القرن أو القرن الذي قبله كعالم من علماء الدين ، الذين أخذوا على عاتقهم مهمة التنوير العقلي للأمة الإسلامية ، وبذلوا في سبيل ذلك الكثير من التضحيات الباسلة التي منها السجن قبل ثورة يوليو 1952 أو تحديد الإقامة في منزله عددا من السنين بعد هذه الثورة .

وكان في إمكانه أن يكون من المجددين ، وذلك من باب إعلاء قيمة العقل ، والحفاظ عليه بعيدا عن الانقياد للعاطفة والهوى ، أو أن ينزل على حكم غير حكم العقل المستند على الضمير الحي اليقظ الموضوعي .

وكان في إمكانه أن يكون بين المجددين ، وذلك من خدمته للغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، كأديب مطبوع يعرف أمانة الكلمة ، ويرعى اللغة العربية وحرفتها ، ويحرص على الصلة الأزلية بينها وبين القرآن الكريم .

وكان في إمكانه أن يكون من بين المجددين في زمانه لو دخل التجديد من باب كونه داعية ومربيا ومعلما يتلقى الناس عنه مثالية الأخلاق ، وصفاء العلم والمعرفة ، عملا لا قولا ، وسلوكا لا نصحا .

وكان في إمكانه أن يكون من بين المجددين من باب مواقفه الوطنية الباهرة التي تسعى إلى الحق والعدل في الأحكام وترفض الاستكانة والذل لغاصب أجنبي أو حاكم مستبد، هذه المواقف التي جعلته يحمل رأسه على كفه ويسير غير مبال بالموت،

مؤمنا بأنه كلما حرص على الموت والشهادة في سبيل كرامة وعزة وطنه كتبت له الحياة والكرامة ، ويبقى مشاركا لثورة عارمة من أبناء الأزهر ، تتحدى وتقاوم ، لتنتصر على القصر الملكي ، والاحتلال البريطاني ، والرجعية السياسية والأخرى العلمية ، وكلتاهما كانت تجران مصر إلى الوراء .

وكان في إمكان الشيخ أحمد حسن الباقوري أن يدخل باب التجديد في الفكر الإسلامي ، وزيرا ثائرا مع الثورة على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تمر بها مصر ، نعم وزيرا للأوقاف يحول خزائنها المتناثرة على أرض مصر إلى عمارات ، ومقابرها إلى مساجد ومدارس ، ويدفع بعلماء الدعوة فيها إلى الوظائف العليا ، والمراكز القيادية . حتى تحولت هذه الوزارة في عهده إلى وزارة للدعوة المتعقلة ، والتعمير والإنتاج والتصنيع المطلوب .

ثم كان في وسعه وإمكانه أن يكون من المجددين للقرن الخامس عشر ، قرن التحولات والأعمال الكبرى ، إذا دخل من باب إنشائه وإدارته لجامعة الأزهر ، فأعاد للأزهر مجده وبهاءه ، وجعل منه رحابا فسيحة تتسع لكليات الطب والهندسة والعلوم والزراعة واللغات إلى جانب كليات للبنات ، فيعود صحن الأزهر إلى أيام شبابه وفتوته ، وتموج قاعاته وأعمدته بحلقات العلم مفتوحة للجميع .

كان في وسع الشيخ أحمد حسن الباقوري أن يكون ذلك وغيره ، الذي يجعله من بين المجددين ، ولكنه كما قال عنه مؤرخوه : بصيرا ملهما ، أمينا ونقيا ، شجاعا وباسلا ، متفتحا وسمحا ، متواضعا وجليلا ، ومهيبا ومحبوبا ، فكان في كل ذلك مزيجا من كل هذه الصفات .

وكان الباقوري نموذجا فذا من العلماء الدعاة ، فقد جمع إلى جانب العلم الغزير المروءة العالية ، والسماحة التي يلمسها كل من يلقاه والأدب العالي الذي يجذب إليه كل من يستمع إليه خطيبا أو متحدثا أو محاورا ، وقد شهدت وزارة

الأوقاف في عهده انطلاقة واسعة تمثلت في الارتفاع بمستوى القائمين بأمر الدعوة وسيادة النظرة السمحة التي كانت تميز منهج الشيخ والتعبير الصادق عن نظرة الإسلام الرحبة للكون والحياة ، ونشر المفاهيم التي تؤصل هذه القيم العليا في القلوب والمشاعر .

وقد قامت الوزارة في عهده بنشر كتاب : (العلم يدعو للإيمان) ، وقدم له ببحث رائع عن الإيمان وأثره في حياة الأفراد والمجتمعات ، وهو كتاب يستفيد منه المشتغلون بعلوم الدنيا والدين ، كذلك كان الباقوري هو اللسان المعبر في شرق الأرض وغربها عن اتجاهات ثورة يوليو ، وتمثل ذلك في رحلاته التي قام بها من الصين إلى المغرب ، ولما أسندت رئاسة جامعة الأزهر إليه ، كان ذلك يمثل عصرها الذهبي فقد جعل منها ملتقى للفكر العالمي ، ومثابة للباحثين والزائرين من جميع أرجاء العالم .

لقد شهدت – ولاتزال تشهد – قاعة الشيخ محمد عبده قادة الأديان وأساتذة الجامعات في أوروبا يلقون فيها محاضراتهم . ويعرض الشيخ الباقوري من خلال ذلك عظمة الإسلام وسماحته ، وكان مجلسه على مدى خمس سنوات ونصف في منزله ندوة علمية يرتادها كبار العلماء والمفكرين ، وتبسط فيها القضايا العلمية في علوم الإسلام واللغة وآدابها بعيدا عن السياسة وما فيها ، وكان رحمه الله محورا تتجمع فيه القلوب والمشاعر في مصر وخارجها ، وقد تكررت زيارته إلى إنجلترا على مدى العشرين عاما الأخيرة من حياته لاستشارة الأطباء وتلقي العلاج ، وهناك كان مجلسه مثابة للعلماء والأدباء من رجال العروبة الذين يتواجدون في لندن ، وعلى الرغم من تعرضه لبعض المتاعب الصحية ، إلا أن ذلك لم يصرفه عن البحث والدرس والإنتاج والتوجيه في الصحف ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية ، وما زود به المكتبة الإسلامية والعربية من إنتاج غزير في الشريعة ومعالمها ، واللغة وآدابها، والتاريخ ورجاله .

وكانت حياته العلمية - كما يسجل الدكتور «محمد إبراهيم الجيوشى» في مقالة بالأهرام : سلسلة متواصلة من الكفاح العلمى والنضال السياسى ، فقد وهبه الله عقلا راجحا ولسانا مبينا ورأيا سديدا وشجاعة في الحق لا تعرف التردد فكان الخطيب الذي يهز أعواد المنابر والأديب الذي يأخذ بلب القارئ والعالم الباحث المدقق الذي يكشف عن أسرار كتاب الله وهدي النبي - ﷺ - ، وكان الانتماء للإسلام الهاجس الذي يشغل باله ويملك آفاق فكره ، والمحرك الذي يدفعه إلى الإقدام على أي عمل يرى فيه خدمة لدينه ورفعة لشأنه ، وتجلية لحقائقه ، من أجل ذلك صحب الشيخ «حسن البنا» وجاب معه مصر من شمالها إلى جنوبها ، وقضى أيامه الوظيفية الأولى بالأزهر بين ساحات الدروس وباحات المعتقلات والسجون .

له دور مذكور ومشكور في الإصلاح الذي يحتاج إليه القائمون بأمر الدعوة من أئمة وخطباء ، وكان رحمه الله يتخذ المنابر وسيلة لتقديم المثل الحى على ما يجب أن يكون عليه خطيب الجمعة من فقه في الدين ومعرفة بالحياة . وقد حدد منهجه في أول خطبة ألقاها بعد توليه الوزارة في عناصر ثلاثة :

1- الحرية التي تنبع من الإسلام من حقيقة : لا إله إلا الله .

2- الثقة بالنفس التي تستند في نفوس المؤمنين الصادقين إلى الأدب الرفيع في قول رسول الله - ﷺ - : « **لا يكن أحدكم إمعة ، يقول : أنا مع الناس ، إن أحسنوا أحسنت وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم** »(1) .

3- قيام العلاقة بين المواطنين على المودة والتراحم ، مع البعد عن العصبية للعرق أو الجنس أو اللون أو الدين أو الغنى أو الفقر ، ويكون فضل الإنسان ومكانته بقدر ما يبذله من جهد مشكور .

(1) الترمذي : باب البر .

ولعلنا نستنير من فكر وعلم الشيخ الباقوري بعرض كتابين من كتبه ، الأول : (معاني القرآن بين الرواية والدراية) والثاني ، كتاب : (قطوف من أدب النبوة) في هذه السطور السريعة .

يدور الكتاب الأول حول وحدة المسلمين ، وقد كان - رحمه الله - يأسى كثيرا لما يجد عليه المسلمين من تفرق الكلمة ، واختلاف الرأي ، واحتدام الضغائن فيما بينهم ، ويرى أن الرابطة الوحيدة التي تجمعهم هي رابطة الإسلام ، وأنهم ما تفرقوا واختلفوا إلا لأنهم اتخذوا هذا القرآن مهجورا ؛ فالقرآن والسنة كلاهما يدعو إلى الوحدة وينهى عن النزاع والاختلاف ، وهكذا يتناول كتاب : (معاني القرآن بين الرواية والدراية) والأسس الثلاثة التي تقوم عليها وحدة المسلمين وهي : الكعبة المشرفة ، والقرآن الكريم ، والخلافة الإسلامية وهى العمد الثلاثة التى قامت عليها أول دولة للإسلام في المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام .

أولا - الكعبة المشرفة : هى الرمز البارز لاتحاد المسلمين ، مهما تباعدت مواطنهم واختلفت ألسنتهم وألوانهم ، وإليها يفيئون من شتى البقاع وإليها تتجه وجوههم في صلواتهم .

وفي تناوله لموضوع الكعبة المشرفة يقول الشيخ الباقوري :

« والذين يتبعون في عصرنا هذا ما صار عرفا متبعا بين الشعوب من المعاهدات الثقافية التي يتعارفون فيها ويتواصلون والمعاهدات الاقتصادية التي يتبادلون فيها المنافع والكسوب ، يرون الإسلام قد سبقهم إلى ذلك بأربعة عشر قرنا من الزمان . فالحج بهذا النظر ركن عظيم تستند إليه الجامعة الإسلامية التي تصون مصالح أمة القرآن » .

ثانيا- القرآن الكريم: هو دستور المسلمين العام، فيه علم ما بينهم ونبأ ما قبلهم وما بعدهم ، وهو كلام الله الذي يتعبد المسلمون بتلاوته ويتبعون أحكامه ويتقربون

إلى الله بقراءته وسماعه . ويتساءل الشيخ الباقوري : « وإذا كان المسلمون في مختلف أنحاء الأرض يتلون كتابا واحدا، فلماذا يختلفون فيما بينهم ، ولماذا تنحل وحدتهم؟!»

ويقول – رحمه الله – : « لقد جمع الله تعالى للمسلمين في هذا الكتاب الكريم أصول الحياة الاجتماعية الشريفة التي يسعد في ظلالها أبناء العقيدة الإسلامية ، وأجمع على احترامها أهل الديانات السابقة على الإسلام ، إنها الكليات الخمس وهي : احترام النفس – واحترام المال – واحترام النسب – واحترام العقل – واحترام الدين . إن الله قد جمع للأمة الإسلامية في هذا الكتاب العزيز كل ما يعتز به الإنسان ويسعى إليه ويحرص على الظفر به من الحرية الشاملة والعدالة الكاملة والسلام . وصدق الله فيما وصف به كتابه الكريم في قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾[1] ».

ثالثا – الخلافة الإسلامية : هي الرابطة السياسية التي تجمع المسلمين تحت لواء واحد ، وقد خسر العالم الإسلامي خسارة كبيرة بضياع الخلافة الإسلامية منذ دالت دولة العثمانيين .

وبمقدار ما كانت الأمة الإسلامية ترى في هذه الأصول الثلاثة سبب بقائها ونمائها كانت قوة الاستعمار ترى فيها عقبة كئودا في طريقها إلى الاستذلال والاستغلال ؛ ولذلك راحوا يتربصون بها ويكيدون لها ، تسوقهم إلى ذلك أحقاد مشبوبة النار مسعورة الأوار ، حتى إذا لاحت لهم الفرصة إلى النيل منها ، خصوها بكل ما تنطوي عليه صدورهم من أحقاد .

ونختار من الكتاب الثاني (قطوف من أدب النبوة) فصلا عنوانه : «الرجوع للحق فضيلة» نسجل منه هذه السطور :

---

(1) إبراهيم : 1 .

« وقد يخطئ الناس طريق الحق ، وربما كان في معروف أهل السلطان ، أن الرحمة خور في الطبيعة، وأن العدل غض من جاه الحكم، ونقص من هيبة السلطان، فإذا الظلم عند أحدهم أحب إليه وآثر عنده من العدل الذي هو في رأيه أو في رأي أهل السوء من بطانته ، سبيل إلى فقد لعزازة الجاه وحرمان من لذاذة السلطان .

ولذلك ، يبدو غريبا من مثل «الحجاج بن يوسف الثقفي» . أن يعترف بالحق ويخضع لمنطق المظلوم ، ويشيع في الناس ذلك المعنى ، على نفرة الظلمة من الخضوع لمنطقه ، والضن بهيبتهم على التخاضع لسلطان العدل الذي تنتظم به أمور الدنيا وأمور الدين .

وبيان ذلك ، وما يرويه الثقات من أسلافنا ، من أن في أولئك الطغاة من ولاة أمر الأمة العربية ، من كان يفيء إلى ظلال العدالة ، تسكن إليها نفسه ، أو يعتز بها سلطانه ، فقد وفد ذات يوم على الحجاج رجل يدعى «فرعون بن سلكة» فقال له : أصلحك الله أيها الأمير ، أصغ إلي سمعك ، واغضض عني بصرك ، فإن سمعت خطأ أو زللا فدونك العقاب ، وإن سمعت غير ذلك فأنصفني من الظالمين .

وعلى الرغم من أن الحجاج كان فاتكا لا يهاب دما يريقه ولا ظلما يرتكبه . لم يجد بدا من أن يكون كما رغب إليه الشاكي أن يكون فقال له : قل ، أسمع ، وإياك أن تفتئت بالباطل ، أو تتزيد في الشكوى ، فإن الصدق أنجى لك وأعون على إنصافك ، فقال له ابن السلكة : اقترف جار قريب لي ذنبا ، وليس لي سلطان ، ولا لي بمعاقبته يدان أو قدرة ، فجاء وكيلك فأمر بهدم داري ، ثم وضع حلقة حول اسمي. فوضعني بهذا التحليق على اسمي في قوائم أهل الشبهات ، المتمردين على سلطان القانون ، وأدركت الحجاج بعنجهيته الإعرابية . فقال : هيهات . أو ما سمعت قول الشاعر :

جـــانيك من يجنـــي عليك وقد

تعدى الصحاح مبارك الجـــرب

ولرب مأخـــوذ بذنب عشـــيرة

ونجا المقارفي صاحب الذنـــب

ثم قال الحجاج للمستغيث به من رعيته : إن الجاني هو من يجني ، ولكن جـوار الجناة سبيل إلى أخـذ الـبريء بـذنب المجـرم ، كالإبـل الـصحيحة يـصيبها الجـرب بالعدوى ، إذا بركت في مبارك الإبل الجربى .

ولم يكد المظلوم الشاكي ، يستوعب كلمات الحجاج ، حتـى مـلأ اليـأس قلبـه واستعجمت الكلمات على شفتيه ، وضاقت الدنيا - بما رحبت - عليه وحتـى خيـل إليه أن اللياذ برؤوس الجبال آمن له وأحب إليـه مـن معايـشة أولـئـك الظـالمين مـن الحكام والمحكومين ، ولكن عناية الله أدركته ، بعد أن بلغ اليأس به غاية مداه ، فـإذا هو يتجه إلى الحجاج ، فيراه شيئا قميئا ، ويرى الله جل ثنـاؤه مـلء نفـسه ، ومطـاف حسه ، فيقول من حيث لم يرد أن يقول : ولكن الله يقول غير ذلك يا حجـاج ، فإمـا أخذت بقول الله في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا مـن خلفـه ، وإما أخذت بكلمة شاعر أعرابي جهول .

فقال الحجاج : وما الذي قال الله يا هذا ؟ قال الله - جل ثناؤه - على لسان أبناء يعقوب لفرعون مصر : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴾(1) .

(1) يوسف : 78 ، 79 .

فلما قرعت الآية سمع الحجاج ، دعا بصاحب المظالم فقال له : أفكك لهذا عن اسمه، واصكك له بعطائه، ومر مناديا ينادي في الناس : صدق الله ، وكذب الشاعر، وأخطأ الأمير .

وهكذا يكون الكبار دائما ، يرجعون إلى الحق ، حين تلوح لأعينهم أعلامه ، وتتضح بين أيديهم المعالم إليه . فأما الصغار ، فإنهم دائما صغار ، لا يرجون الخير في دنيا أو دين ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » .

وإذا أضفنا إلى ما سبق من إشارات إلى علم وفكر وفضل الشيخ الباقوري جانبا مهما هو جانب التيسير وعدم التشدد ، فإن ذلك يعتبر في حد ذاته من مقومات تجديد هذا العالم الجليل في التفكير الإسلامي .

هذا التيسير وعدم التشدد استمدهما من الكتاب والسنة ، حتى صار إماما في هذا المجال يعرف به ، فضلا عن مآثره الأدبية واللغوية المكتوبة أو المسجلة بصوته في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية إلى جانب محاضراته ؛ فقد كان رحمه الله داعية يملك كلمته ويبثها في موضعها باقتدار وسلاسة ، تشع بالروح القرآني المبهر ، الذي يغزو القلوب والعقول فور إلقائه ، فتهتز لها الأرواح طربا وتطمئن لها خشوعا وسكينة ، وهذا بفضل معايشته للقرآن الكريم .

لقد كان يرى في مجال التيسير وعدم التشدد ، أسلوبا ينبغي أن يتبعه العالم أو الداعية أو العالم أو المتفقه في الدين مع الحرص - بالطبع - على الكتاب والسنة فيقول : «التشدد لا خير فيه للمتشدد، وللمتشدد عليهم ، ولا خير فيه لرب العالمين، فالله سبحانه وتعالى حين أمر الناس وكلفهم إنما أمرهم وكلفهم في حدود ما يطيقون، وفي حدود ما ينتفعون ويسعدون ، فعلى قدر ما تحسن ستلقى ، كلما كان المنهاج سهلا ميسرا ، ولذلك انصرف الناس أحيانا عن الدين نتيجة التعسف أو العصبية ؛ لأن الإنسان إذا وجد نفسه محوطا بالأغلال والسلاسل ، حيثما تحرر أو تحرك ، فإنه

لا مناص له ولا معدل في أن يحطم عن نفسه هذه السلاسل والأغلال ، ومن هنا ، وجدت طائفة الخوارج في التاريخ القديم ، ووجدت في التاريخ الحديث الأعمال المغرضة فشقيت لنفسها ، وأشقت المجتمع الذي تعيش فيه » .

ولعل من مقومات هذا التيسير وعدم التشدد ، مكونات الأسلوب عنده وتميزه عن غيره من العلماء ، فقد كان يمزج أسلوبه بسحر الكلمة ، وعطر الحرف ، ودقة العلم ، ورصانة العبارة ، وموضوعية ونزاهة الحكم .

ولعلني أسجل مثلين على هذا التيسير وعدم التشدد اللذين تميز بهما عالمنا الجليل الشيخ الباقوري . أما **المثل الأول** : فقد كان قبل منتصف الستينيات من القرن العشرين وكان صاحب هذه السطور صحفيا في بداية الطريق ، وقد طلب منه إجراء حديث مع الشيخ الباقوري أثناء إدارته لجامعة الأزهر بمناسبة شهر رمضان . وتوجهت إلى مكتبه للقائه ، وإذ بي أجد نفسي في مواجهته وحوله عدد كبير من كبار العلماء المعروفين في ذلك الوقت ، وأستأذن منهم كي يستمع إلى أسئلتي . وكان من بين هذه الأسئلة سؤال مستفز في مضمونه هو : لو جاءك شيوعي لا يؤمن بالله وسألك عن قيمة وجدوى الصيام فكيف تقنعه بالصوم دون أن ترجع إلى الكتاب أو السنة اللتين لا يؤمن بهما فماذا تقول له ؟ انزعج الحاضرون لهذا السؤال ، وبدت عليهم ملامح الازورار والغضب ، والتي تحولت إلى همهمة تعبيرا عن رفض هذا الأسلوب في الحوار ، وهنا انبرى الشيخ الباقوري مهدئا إياهم وقائلا : « إن ولدنا سامح على حق في هذا السؤال ، فمثل هذه الأسئلة هي واجب علينا أن نرد عليها ونقنع أصحابها » . وواصل حديثه معي مدللا على قيمة الصوم وجدواه ومنافعه دون أن يلجأ إلى آية قرآنية أو حديث شريف .

وأما **المثل الثاني** : فقد كان حين شرعت في تأليف كتاب : (مع النبي في رمضان) الذي يتناول هدي النبي – ﷺ – اليومي في رمضان بحيث يشتمل الكتاب على

ثلاثين فصلا بعدد أيام شهر رمضان ، ولما كانت هذه الفصول تتضمن مسائل فقهية حساسة ومتعددة طلب مني الناشر وقتئذ أن أمهد لها بمقدمة بقلم أحد العلماء الثقات، وطبيعي أن يمثل هذا المطلب من الناشر عندي صعوبة مؤداها: كيف يمكن إقناع واحد من علمائنا الأجلاء بتقديم كتاب يتناول هدي النبي - ﷺ - وتعاليمه التي ينبغي أن يتبعها المسلم في رمضان ؟!.. وهنا قصدت باب الشيخ الباقوري وطلبت منه أن يكتب مقدمة لهذا الكتاب ، فأبدى استعدادا طيبا وأخذ الكتاب وقرأه وعلق عليه بشيء من الأناة والدقة مستحسنا جهد صاحبه المؤلف الشاب ...

وهكذا كان الشيخ الباقوري يأخذ بأيدي الأجيال الشابة ، شأنه في ذلك شأن الأساتذة الكبار . وغير ذلك من جوانب تيسيره في الدين .. على اعتبار أن الدين يسر وليس عسرا .

* * *

عبد الرحمن الشرقاوي

يعتبر عبد الرحمن الشرقاوي من مجددي القرن الخامس عشر الهجري ، فقد ولد عام 1338هـ وتوفي عام 1408هـ ، لما قدمه من كتب إسلامية تدور حول النبي - ﷺ - والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم والصحابة والقضايا الإسلامية بأسلوب أدبي شاعري تميز به عن غيره ، خاصة حين مزج الدين بالسياسة على اعتبار : أن الإسلام دين وحياة ، وغير ذلك مما جعل كتاباته عن الإسلام ذات مذاق خاص ، وتناوله مختلف عن غيره من كتاب (السير والشخصيات الإسلامية) .

وطبيعي أن يكون ما يبقى للشرقاوي ككاتب إسلامي صناعته الكلمة : مواقفه وأعماله ، فأما المواقف فقد حفلت بها حياته ، وأما الأعمال فقد سجلتها كتاباته . ومن مزيج الاثنين معا كان الشرقاوي الذي عرفه القارئ العربي ، وعرف مواقفه لأقرب من نصف قرن .

هذه المواقف جسدتها كتاباته - وإن كان لم يحرص على كتابة ترجمة ذاتية لنفسه على عادة كبار الكتاب ، باستثناء هذه الإشارات السريعة التي جاءت في مقدمة «أحلام صغيرة» - بصورة إن لم تكن صريحة فهي على الأقل ضمنية . على أن بعض الكتابات قد غطت هذا الجانب المفتقد من كتاباته ، فرصدت العديد من مواقفه ، سواء في حياته أو بعد رحيله .

تبقى الأعمال . وهنا يحار المرء بسبب غزارتها وتعدد توجهاتها ، فهل يكتب عن الشرقاوي الروائي : صاحب رائعة «الأرض» التى تعد واحدة من عيون الأدب العربي الحديث ، وغيرها من الأعمال الروائية الخالدة ؟! أم يكتب عن الشرقاوي

كاتب القصة القصيرة وإسهاماته في هذا الميدان بمجموعات منها (أرض الأحلام) و(أحلام صغيرة) وأمله مع أبناء جيله أن يرقى هذا النوع من الأدب إلى المستويات العالمية ؟! أم يرصد هذه الأعمال الشعرية ، والتي نلمحها في الكثير من أعماله سواء ما نشر في كتب مثل : (رسالة إلى شهيد) أو (باندونج والسلام العالمي) أو مقالات في صحف ومجلات الشعب والمساء وروزاليوسف والأهرام ، حيث كان يواكب الأحداث ، مؤكدا بصورة أو بأخرى مقولة أن الكاتب الحقيقي وسط المعركة قاسم وشريك ، وأن صمته أحيانا عن الأحداث يعتبر موقفا في حد ذاته ؟! أم يسجل المرء لمسرحه الشعري وتجربته الرائدة في استخدام الشعر الحر في الدراما الشعرية ، فاتحا بذلك آفاقا جديدة للمسرح الشعري أسهمت إلى حد كبير في إثراء الحوار المسرحي ليشمل الكثير من قضايانا من خلال مسرحيات منها : (مأساة جميلة) و(الفتى مهران) و(وطني عكا) و(الحسين ثائرا) و(الحسين شهيدا) و(النسر الأحمر) و(عرابي زعيم الفلاحين)؟! ... وغيرها من الأعمال التى وظف في بعضها التراث العربي والإسلامي توظيفا فنيا مبدعا ، فلم يتعامل مع هذا التراث كمادة خام تنتمي إلى الماضي، بل كمواقف وحركات تسهم إلى حد كبير في تطوير المجتمع العربي المعاصر، وكأنه يؤكد أن أصالة إبداعنا هى الرؤية المعاصرة لتراثنا ، أم ترانا نسجل لإسهاماته في ميدان الكتابة الإسلامية ، وهو الميدان الأثير إلى نفسه حتى آخر أيام حياته ، وهو في الوقت نفسه الميدان الذي تمثل فيه بحق وهج تفكيره شابا ناضجا ، وعمق تجربته كاتبا كبيرا ، وخاض من أجله الكثير من المعارك الفكرية التي ناله منها ما ناله من متاعب مصدرها وضعه حدا فاصلا بين معنى الدين الإسلامي في عظمته وجلاله من ناحية ، والمتحدثين باسم هذا الدين والمتاجرين به من ناحية أخرى ؟!

وعلى الرغم من أن هذا الميدان الذي كان أثيرا لديه ، والذي قدم فيه إنتاجا غزيرا نذكر منه: (محمد رسول الحرية) و(الفاروق عمر) و(علي إمام المتقين) و(أول الخلفاء أبو بكر الصديق) و(عمر بن عبد العزيز) و(الأئمة التسعة) و(ابن تيمية

الفقيه المعذب) و(قراءات في الفكر الإسلامي) ، والذي لم يتوقف عن الإسهام فيه حتى آخر أيام حياته ، فإنه لم يقيم التقييم الواجب الذي يعطيه ما يستحقه ويأخذ منه ما يزيد على حقه .

ولعل المرء لا يبالغ في القول : أن إسهام الشرقاوي في ميدان الكتابة الإسلامية مادة خصبة تغريه بالتأمل ، بل تجعله يفضله على غيره من الميادين الأخرى التي أسهم فيها ، لسبب بسيط هو أنه في هذا الميدان بالذات تتركز خلاصة أفكاره العلمية والعملية معا .

ولهذا ولغيره من أسباب ، تقدم هذه السطور محاولة متواضعة أو هذه الكتابة الإسلامية إشارة إلى إسهام الشرقاوي في ميدان الكتابة الإسلامية ، حيث تختبر هذا الإسهام بعدد من التساؤلات منها : هل أضافت جديدا إلى تفكيرنا الإسلامى ؟ وهل كانت هذه الكتابات الإسلامية مميزة عما كتبه عدد من الرواد ؟ وهل تضمنت حقا خلاصة تجربة الشرقاوي سواء العلمية أو العملية ؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها ، نسجل بادئ ذي بدء : أن الشرقاوي في اختياره لهذا النوع من الكتابات ، قد أدرك أن الكتابة عن هذه الشخصيات الإسلامية أو غيرها من المادة الإسلامية عمل فكري لا يقوم أمره على تجارب حاضرة تخدم أخرى قديمة ، أو برهان جديد ينقض آخر قديما ، بل الأمر فيها قائم على رواية الخلف عن السلف ، والمحدثين عن الأقدمين ، منذ قام الإخباريون المسلمون الأوائل يتناقلونها حتى وصلت في شكل سير وتراجم مكتوبة .

هذا الأمر لم يكن خافيا على الشرقاوي ، فقد أشار إليه في كتاباته الإسلامية المتعددة ، فنراه في تقدمته لكتاب (محمد رسول الحرية) يقول : « أنا لا أقدم كتابا جديدا في السيرة ، فمكتبة السيرة غنية زاخرة بالمؤلفات القديمة ، وما أحسب أن كتابا جديدا يمكن أن يضيف حقيقة جديدة إلى ما كتب عن السيرة » .

وإذا كانت المادة في هذه الكتابات واحدة ، فلابد أن يكون في تناولها ما يميز كاتبا عن آخر . وهنا نجد الشرقاوي قد اختار لنفسه ذلك اللون الفني في التناول وهو لون يصبغ العمل ككل بصبغة الإبداع ، فالكاتب يجمع بين يديه كتب السابقين والمحدثين ليخرج في النهاية بعمل مبدع مؤلف ، في ظاهره له ، وفي حقيقته لمن سبقه من الرواة والكاتبين . وهذا الأمر لم يكن خافيا على الشرقاوي ؛ ففي تقدمته لأغلب الشخصيات الإسلامية التي اختارها كان يعلن عن ذلك ، مثلا في تقدمته لـ (أئمة الفقه التسعة) يقول : « أحسست أن من الواجب على أن أنشر صفحات نضال هؤلاء العلماء والفقهاء ، وأن أتقصى مواقفهم من الحياة والناس ، وأن أرسم بقدر ما وسعني الجهد صورا لهم أضعها أمام القارئ المعاصر » .

وكلا الأمرين: اختياره للشخصيات الإسلامية الفذة ، وتناولها بأسلوب فنى ، يضع الباحث في إسلاميات الشرقاوي أمام مسئوليات جسام ، لعل أولها أن يكون على معرفة بالمصادر القديمة التى يرجع إليها ، بالضبط مثل معرفته بالعمل الجديد . خاصة أن الشرقاوي كان أمينا حين رد مادته الجديدة في شكلها وتناولها ، القديمة في جوهرها وأصلها إلى مصادرها الأولى ، لكنه مع ذلك لم يذكر في بعض أجزاء من كتبه أرقام الصفحات التى كان يرجع إليها ، وهذا بالطبع يرهق الباحث ، فيكفى أن أذكر أن مصدرا واحدا من عشرات المصادر التي رجع إليها وهو كتاب (الأغاني) للأصفهاني يتفرع إلى أكثر من عشرين مجلدا ، كل مجلد يتضمن مئات الصفحات من القطع الكبير ، لكن هذا أيضا لم يكن خافيا عليه ، بل كان يتعمده . وكانت حكمته في ذلك أن يثير لدى القارئ إمكان البحث وهو ما عبر عنه صراحة في كتابه (علي إمام المتقين) قائلا : «فليرجعوا إلى هذه الموسوعة ، وليبذلوا ما بذلت من جهد» .

وكاتب كبير مثل الشرقاوي ، يدخل ميدان الكتابة الإسلامية على هذا النحو ، لابد أن يثير في الذهن التساؤلات حول بداية الاهتمام بهذا الجانب من الكتابة ، والمؤثرات والأسباب ، والمراجعة تكشف عن اهتمام الشرقاوي بهذا الجانب بدأ

عنده مبكرا ، لتظهر بذوره في خمسينيات هذا القرن في سلسلة مقالات نشرها تحت عنوان (ثورة الفكر الإسلامي) لتصدر فيما بعد في كتاب هو (قراءات في الفكر الإسلامي) عام 1972 ، وبين نشر هذه المقالات وإصدارها في كتاب ، أصدر كتابه الخالد (محمد رسول الحرية) عام 1962 الذي كان يعده منذ عام 1953 كما تقول مقدمته ، لتتوالى من بعد كتاباته الإسلامية وكان آخرها عن (الصديق أبو بكر) الذي صدر بعد وفاته بأيام .

وهذا الاهتمام كان له ما يبرره من ظروف وراثية وأخرى مكتسبة .

أما الظروف الوراثية فنلمح ظلالها حتى في رائعته الأدبية (الأرض) ، في حديث يجري على لسان راويها أو كاتبها ، فيه يظهر كيف اهتم والده بتأديب ابنه بآداب الدين ، كذلك نرى كيف كان تقدير القرية لشيخها ، فهو فقيه القرية ومفتيها، وخطيب مسجدها ومأذونها الشرعي ، ومعلم الصغار ، وواعظ الكبار .

كذلك .. نلمح في إهداءاته لكتبه الإسلامية دلالات تقربنا من هذا الاهتمام . مثلا : يهدي والده كتاب (محمد رسول الحرية) قائلا : « إلى أبي الذي غرس في قلبي منذ الطفولة حب محمد » ، ويهدي والدته مسرحيتي (الحسين ثائرا) و(الحسين شهيدا) مسجلا كيف علمته حب الحسين ، ولشقيقه يهدي كتاب (علي إمام المتقين) مذكرا إياه حبهم للإمام علي وقرابتهم لابنه الإمام الحسين ، ولأولاده يهدي كتاب (عمر بن عبد العزيز) راجيا أن يحبب لهم تراثهم العظيم ، وأن يجدوا فيه العبرة والأسوة . فإذا أخذنا بمقولة أن الكاتب هو ما يكتب ، أصبح لدينا سبب وراثي لظهور هذا الاهتمام ، نابع من الوسط الاجتماعي ، وقلنا إن للوراثة وظروف النشأة دخلا كبيرا في هذا الاهتمام الذي لازمه إلى آخر أيام حياته .

يضاف إلى هذا الاهتمام الموروث آخر مكتسب ، خلاصته : أن الشرقاوي عرف فيما قرأ لجيل الرواد أنه كانت هناك هجمة ضارية على الإسلام في ثلاثينيات هذا

القرن ، جعلت رواد هذا الجيل يتفقون فيما بينهم على إعادة كتابة التاريخ الإسلامي بصورة تقربه إلى الناس حتى لا يلتمسوا معرفته من كتاب غير مسلمين .

كان ذلك فيما عرفنا بمشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامي الذي دعا إليه طه حسين ليكتب الجانب الأدبي من هذا التاريخ ، ويتولى أحمد أمين الجانب الفكري ، وعبد الحميد العبادي الجانب السياسي، يواكب هؤلاء في الاهتمام بالكتابة الإسلامية كل من العقاد وهيكل والحكيم .. ولابد أن يكون الشرقاوي قد قرأ لهؤلاء ما حبب إليه الكتابة في هذا الميدان .

وعلى هذا الأساس ، يمكن القول بأنه ليس مصادفة أن يقتحم ميدان الكتابة الإسلامية أديب مثل الشرقاوي ، إذ كان قد سبقه من قبل أدباء كبار منهم : طه حسين والعقاد وهيكل وأحمد أمين والحكيم ، عندما كانت مصر تبحث عن تحقيق ذاتها في ثلاثينيات القرن الماضي ، ففكروا في إيجاد وسيلة لربط حاضر الأمة بماضيها من ناحية ، وتفنيد افتراءات أعداء الإسلام ومزاعمهم من ناحية أخرى ، وأن يكون ذلك بإعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، وقد أشار إلى شيء من ذلك هيكل في كتابه (حياة محمد) قائلا : « خيل إلي كما خيل إلى أصحابي أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر » .

وليس مصادفة أن يقتحم ميدان الكتابة الإسلامية كاتب كالشرقاوي ، مدافعا عن قيم ومبادئ هذا الدين ، بعد أن سلك دراسة القانون ، ولعل أبسط ما تتيحه هذه الدراسة لصاحبها أنها تجعل منه مدافعا عن حق يراه مشروعا . لذلك ، نراه فيما يكتب عن النبي الكريم وخلفائه الراشدين وأئمة الإسلام خير مدافع ؛ حيث يجلي الكثير من المعاني التي تمثلت في هؤلاء جميعا ، ومنها التطور الذي كان يمثله هؤلاء الأفذاذ ، والعدل الاجتماعي الذي كان مطلبهم ، والقدوة التي سارت عليها شئون حياتهم . وهنا نرى الشرقاوي في كل ذلك يهتم بتصوير الجانب الإنساني

للإسلام كدين سماوي جاء للناس كافة ، وميراث حضاري لكل البشر مهما اختلفت آراؤهم ، معلنا أننا نملك من حقائق التاريخ الثابتة ، ما يقطع بأن للإسلام دورا فعالا استطاع أن يؤثر به في ماضي البشرية ، بالقدر نفسه الذي يمكن أن يؤثر به في مستقبلها .

يضاف إلى ذلك : أن حياة الشرقاوي العملية قد وهبها للأدب شاعرا وقصاصا، وبين الشعر والقصة صلة رحم وقربى ، فمنذ القدم والقصة لا تفترق عن الشعر . أليس «هوميروس» الملقب بأبي الشعراء والأوروبيين كان في الأصل قصاصا ، في حضانته الشاعرية تربت القصة في مهدها الأول ؟! وأليس «شكسبير» و«جيتي» وغيرهما من النوابغ استمدوا القصة من الإطار الشعري ؟!

ها هو الشرقاوي يبدأ الكتابة الإسلامية بعد أن استوى شاعرا وقصاصا ؛ فلابد أن يكون لذلك أثره المباشر على أسلوبه واختياراته ، وأول ما نستشعره هو : شاعريته في سرده للأحداث التاريخية ، ولعلنا نتأمل ذلك في عبارة من آلاف العبارات جاءت بكتابه : (محمد رسول الحرية) فيها يصور حلم النبي الكريم بعالم جديد : «يحلم عليه الصلاة والسلام - بأشياء رهيبة حقا ، يحلم كأن أصنام الكعبة تسقط ، ودولة الطغيان تتقوض ، بكل دعارتها وترفها المستبد ، من أقصى بلاد الروم والفرس إلى الجزيرة العربية ، وكأن الناس قد تحولوا إلى بشر آخرين ، لا يرفع أحدهم السيف في وجه أخيه ، ولا تمتد يد بالعدوان على أحد ، كلمة الحق ترتفع كالراية تظلل جموعا لا حصر لها من رجال شرفاء ، ونساء فاضلات ، وأطفال سعداء .. » .

ونلمح أيضا أسلوبه القصصي في تركيباته واختياراته ، فبينما نجد أن معظم أعماله سير وتراجم ، لا نجد في الدراسات غير كتاب واحد هو (قراءات في الفكر الإسلامي) ، وهذا في حد ذاته يشير إلى دلالات ، منها : إيمان الشرقاوي بصلاحية

القيم والمثل التي ازدهرت في حضانة الدين الإسلامي ورواها الخلف عن السلف ، قاصدا معنى أكبر وأبعد هو تشكيل الحياة المعاصرة ببث روح الطمأنينة في النفوس القلقة ، على نحو ما كان أجدادنا الأقدمون الذين لم تخل حياتهم من مشكلات .

ويضاف إلى كل ذلك : أن الشرقاوي وقد كان في الأصل شاعرا وقصاصا - يجتذبه من المادة التاريخية جوهرها وروحها ، وليست وقائعها وتفصيلاتها ، فهو حين يقوم بالترجمة لواحد من عظماء الإسلام ، فإنه يقدم صورة فنية أدبية مبدعة ، لا عملا تاريخيا موثقا ، فليست الأخيرة مهمته كأديب بل هي مهمة المؤرخ الذي يتسلح بالمنهج العلمي ، فهو فيما كتب أديب فنان يستلهم التاريخ في إبداعه الفنى ، وهو حين يعتمد على الحدث التاريخي كمادة أولية ، فإنه يرى في هذا الحدث ركيزة ينطلق منها إلى عالم التصورات والرؤى ، مستشرفا آفاق الإنسانية في رحلة الإسلام عبر القرون .

ويبقى سؤال : هل كان الشرقاوي في إسلامياته صورة لأي واحد من جيل الرواد ؟ بالقطع لا ، إن للشرقاوي لونه الخاص ، ورؤيته المتميزة ، ومذاقه المختلف، وربما يتفوق واحد من جيل الشرقاوي على واحد من جيل الرواد، إلا أن حق الريادة محفوظ ، والتجربة خير دليل على اختلاف كتابات هؤلاء وهؤلاء . مثلا: لو قرأنا كتاب (محمد رسول الحرية) للشرقاوي نجده يختلف عن (حياة محمد) لهيكل و(عبقرية محمد) للعقاد و(محمد الرسول البشر) للحكيم و(على هامش السيرة) لطه حسين و(فجر الإسلام) لأحمد أمين .

بعد هذا ، هل نحن في حاجة إلى تحديد أكثر لفكر الشرقاوي الإسلامى في عبارات وصفحات مجملها تعتبر تفكيرا في الإسلام ، وإنه يتناوله عن فهم وعقيدة ، فيقدمه على أنه نظام متكامل استطاع إقامة مجتمع متكامل في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، أن يختار ما يلائمه مما يتماشى مع الأطوار الاجتماعية التي تتغير في كل زمان ومكان .

هنا يبدو الاستقصاء والتأمل واضحا على خلاف ما كتب الشرقاوي في بقية إسلامياته ، بمعنى آخر : هو أننا نلمح الشرقاوي مفكرا أكثر منه فنانا مفكرا يتعامل مع الفكرة المجردة ؛ لينقلها إلى القارئ بعد أن يقتلها فهما ، ولعله في ذلك قد تأثر بكتابات الإمام محمد عبده ، ومن بعده الأستاذ العقاد في تناولهما لحقيقة الإسلام كدين يفرض على الذي يتعامل معه البحث والاستقصاء والتأمل والتفكير ، والاحتكام في كل ذلك إلى العقل . ذلك أن التنويه بالعقل والتعويل على حكمه ، ثم الاقتناع بهذا الحكم ، مزية بارزة ضمن المزايا العديدة للقرآن الكريم : ذلك الكتاب المبين ، الذي يذكر العقل في مقام التعظيم والإجلال والتنبيه ، إلى وجوب العمل به والرجوع إليه والاعتماد على «إعماله» وهو التفكير . الأمر الذي لا نجده مفصلا وميسرا هكذا صراحة في بقية الكتب السماوية ، حتى ذهب السلف الصالح إلى القول بأن التفكير فريضة إسلامية محضة ، وأن هذا الدين العظيم يتيح للعقل البشري مساحات هائلة من التفكير مجربا فيه إمكانياته في التطلع والاستقصاء والتأمل.

ولعناية الإسلام بالعقل على هذا النحو ، فإنه يدعو صراحة إلى حرية الإرادة الإنسانية ، فالله سبحانه وتعالى قد منح الإنسان قدرا من هذه الحرية وتلك الإرادة ، وبدونهما لا يكون عليه تكليف أو مسئولية ، وما تشوبه هذه الحرية أو تلك الإرادة إلا من صنع الإنسان نفسه . والإسلام كدين سماوي منح للبشر حرية إرادتهم ، وحريتهم السياسية أيضا بما كفل لهم من الأنظمة السليمة التي أدت إبان ظهوره إلى صلاح حال الفرد والجماعة ، وجعلت الدولة تمتد بدينها وقيمها ومبادئها عن طريق العقل قبل كل شيء .

والآن ، وقد فرغنا من القراءة وقطعنا مع فكر الشرقاوي الإسلامي رحلة ممتعة طيبة ، التقينا في أول مراحلها بالإسلام في أوج عظمته في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ، ثم بالإسلام كعلم وفقه من خلال رجال عظماء أخذوا على عاتقهم

مسئولية شرح وتفسير نصوص هذا الدين ليواكب متغيرات الزمان والمكان على امتداد أرض الإسلام .

ومع هذا الفكر الإسلامى ، عشنا عصورا مختلفة بدأت بعصر المبعث وما قبله ، حيث كانت الأحوال في العالم القديم ، من سيطرة للدولتين العظميين : الروم والفرس، ثم عصر الخلافة الإسلامية كقوة جديدة في ميزان العالم القديم تستطيع أن تناوئ القوتين العظميين وتتغلب عليهما ، يلي ذلك عصر بنى أمية مرورا بملك بنى مروان ووقوفا عند عمر بن عبد العزيز بن مروان ذلك الخليفة العادل الذي أعاد للخلافة الإسلامية تقاها وورعها مع قوتها وعظمتها ، وقبله عصر الإمام الحسين بن على رضى الله عنهما حتى ينتهى عصر بنى أمية بشره وخيره ليسلمنا إلى عصر بنى العباس حيث نعيش مع أئمة الفقه التسعة . من بعده نعيش عصر انقسام الدولة الإسلامية إلى دويلات واستهداف الإسلام لهجمات التتار ، حيث نكون وجها لوجه مع مواقف وأفكار الفقيه المعذب «ابن تيمية» لنعيش أيام محنته في سجون سوريا ومصر .

والحق أقول لكم : إنها كانت رحلة ممتعة حقا طيبة أيضا ، استطاع فيها الشرقاوي أن يضع فوق راحة اليد أهم مراحل التاريخ الإسلامى من خلال تناول الشخصيات الفذة ، وفي كل مرحلة من مراحل هذا التاريخ تطل أحداث تدعو إلى التفكير والبحث حتى في غير كتب الشرقاوي ، ولعل أول هذه الأحداث وأعظمها: وفاة النبي - ﷺ - والدولة الإسلامية في بدايتها من الناحية السياسية وعدم إعلانه - صراحة - خليفة له عليه أفضل الصلاة والسلام ، حتى وإن كان قد أعد أبا بكر رضي الله عنه ليتولى أمر المسلمين من بعده . هنا كانت عظمة المؤمنين الأوائل حين استقر رأيهم على اختيار أبي بكر خليفة لرسول الله - ﷺ - على الرغم من دس البعض وفي مقدمتهم «أبو سفيان بن حرب بن أمية» الذي كان يؤلب الإمام عليا قائلا له أنه أحق بالخلافة .

ومع تسجيل بداية عصر الخلافة وما أعقبه ، نلمح سمات فكر الشرقاوي نفسه فيما يكتب ويؤرخ ، هذا الفكر القائم على الإيمان بالعدل والحرية والمساواة ، فيجد مجالا رحبا لما يؤمن به ، مما يجعل المرء يفكر أيضا بعد قراءته ، فيجد بالرجوع إلى المصادر الأولى مصداقا لما يؤمن ويكتب ، إذ إن هذه الخلافة - كما تقول المصادر الأولى - استمرت ثلاثين عاما مضافا إليها ما يزيد على العامين بشهور هي كل خلافة عمر بن عبد العزيز - بعدها تحولت إلى ملك عضوض على أيدي بني أمية . وصدق نبينا الكريم- ﷺ- حيث تنبأ بذلك فقال : « **إن أول دينكم بدأ نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة ، ثم يكون ملكا وجبرية** » ؛ لأننا إذا نظرنا بعد انتهاء الخلافة الراشدة وبداية عصر بني أمية نجد أن «معاوية بن أبي سفيان» قد تولى أمر المسلمين ، ومن بعده ابنه «يزيد» وكان من المنتظر أن يتولاها حفيده من ابنه يزيد «خالد» لولا أنها تحولت إلى ملك يورثه «مروان بن الحكم» ليتولى ابنه عبد الملك ويتولى أبناء عبد الملك الأربعة «الوليد وسليمان ويزيد وهشام» أمر المسلمين ، وفي عصر بني العباس يتولى حفيد الرشيد من ابنه «المعتصم» وهو المتوكل الأمر ، من بعده يتولاه أبناؤه «المنتصر والمعتز والمعتمد» ، وهكذا تتحول الخلافة إلى ملك يرثه الأبناء والأحفاد.

ثم إن المرء يتساءل بعد قراءة ما كتبه الشرقاوي ، ألم يكن تنازل الإمام الحسن ابن علي رضى الله عنهما عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان من شأنه فتح الباب على مصراعيه أمام أطماع معاوية وأسرته من الذين يريدون الوصول إلى هذه الخلافة حتى على جماجم خير البشر؟ لقد قام معاوية وابنه يزيد بمؤامرة قتل الحسن رضى الله عنه مسموما على يد «الجعد» هذه المرأة اللعينة ، حتى يتولى يزيد الخلافة بعد أبيه دون منازع . صحيح أن الإمام الحسن كان زاهدا في الخلافة كأبيه رضى الله عنهما، ويزداد زهد الحسن لأسباب كثيرة لعل أولها : كرهه أن تحدث بسببها فتنة وقتل ، حتى إنه رد على رجل استفزه بقوله إن هذا السبط الأكبر للنبي الأعظم أراد ذل

المؤمنين بتنازله عن الخلافة لمعاوية قائلا: « لست بمذل المؤمنين ، ولكني كرهت أن أقتلكم على الملك » . فهل انتهى القتل بسبب الملك الذي كرهه الحسن رضى الله عنه أم أنه استمر ، وكان هو رضوان الله عليه المقصود بالقتل مسموما ، وأخوه الإمام الحسين رضى الله عنهما مذبوحا ؟ وهكذا يخلو الميدان لبني أمية وبني مروان ، وحتى حين بايع المؤمنون «عبد الله بن الزبير» رضى الله عنه خليفة عليهم إبان خلافة بني أمية يقتله عبد الملك بن مروان بسيف الحجاج بن يوسف ليخلو الميدان لملك بني مروان. وكأن ملك بني أمية وبني مروان أبى ألا يستقيم إلا بقتل الأنفس البريئة الطاهرة!

وحتى عمر بن عبد العزيز ذلك الخليفة العادل ، الذي كانت فترة خلافته غريبة في عصر بنى أمية وبنى مروان ، ترى هل كان يدري أن حبه للعدل والمساواة بين الناس في وجود آل بيته من بني مروان وأمية ، يصله إلى نفس المصير الذي انتهى به مسموما ؟! وإلا فما معنى رفضه أن يعالج من هذا السم الذي كان يعلم أنه قاتله حتى بعد أن أرسل له ملك الروم طبيبه الخاص ، فأصر على الرفض قائلا : « لقد علمت الساعة التي سقيت فيها ، ولو كان شفائي أن أمسح شحمة أذني أو أوتى بطيب فأرفعه إلى أنفي ما فعلت » ، ما معنى هذا ؟!.. إلا أنه رضى الله عنه كان يدرك أنه لو نجا في هذه المرة فإنه لن ينجو في المرات القادمة في وجود بني أمية .

وغير ذلك من تفاصيل تؤكد ما يضيفه عبد الرحمن الشرقاوي إلى موضوع تجديد التفكير الإسلامي ، والتي تجعل منه أحد المجددين في القرن الخامس عشر الهجري .

* * *

الشيخ محمد الغزالي

الشيخ محمد الغزالي ، أحد مجددي القرن الخامس عشر الهجري حيث عاش في الفترة ما بين 1336هـ ، 1416هـ . هذا المفكر الوحيد الذي تهيأ لاستقبال القرن الخامس عشر بنشر كتاب ضمن كتبه الثمانين تحت عنوان: (الدعوة الإسلامية تستقبل عامها الخامس عشر) مشيرا إلى هذا القرن قائلا : « ونحن الآن نتهيأ لاستقبال القرن الخامس عشر ، ونريد أن نلقى نظرة سريعة على مسيرة الدعوة الإسلامية خلال ذلك الماضى الطويل ، لماذا ؟ لنحاكم أنفسنا إلى مبادئنا الثابتة ، ولنتعرف على ما لنا وما علينا بدقة » .

ويقول : « إن تاريخنا المديد يقوم على كيان واحد متماسك الأجزاء ، متجدد الهدف ، يرث الأخلاف عن الأسلاف منهجا واحدا ، وبلاغا واحدا ، وتجمعهم أمام الله مسئولية مشتركة » .

هذا المفكر الجليل سمعت عنه قبل أن ألتقى به، والتقيت به قبل أن أتحدث إليه، وتحدثت إليه قبل أن أكتب عنه ، وكتبت عنه بعد أن قرأت له ما يقرب من الأربعين كتابا ، وعدد لا بأس به من مقالات بالصحف والمجلات والدوريات من مقالاته التى بلغت (1500 مقالة) إلى جانب ما كتبه البعض عنه فتبين لي من كل ذلك أننى أمام مفكر من الوزن الثقيل ، أو على الأقل مفكر من نوع خاص . من هؤلاء المفكرين القلائل الذين أوقفوا حياتهم لخدمة الدعوة الإسلامية ، سواء بالقول أو بالفعل ، بالأعمال أو بالمواقف ، حيث نلمح في كل كلمة من كلماته أو صفحة من كتاباته مدى الجهد المبذول وراءها ، وأنها تعتمد المناهج الفكرية الموثوق بها ، وتهتم بهموم المسلمين وأزماتهم وتواكب التحركات العالمية المضادة للإسلام ، وكل ذلك يعد ميزة يتميز بها ويتفرد قليلون من المتخصصين في العقيدة والدين ، هو باختصار

من المؤمنين بالعقل ، بالطبع إلى جانب النقل عن الكتاب والسنة وما أتى به السلف الصالح من المسلمين .

وفي سياق الحديث عن مفكرنا الجليل الشيخ محمد الغزالي : أذكر أنه أتيح لي لقاؤه : اللقاء الأول والأخير صدفة ، وكان ذلك في واحدة من المؤتمرات التي كان يعقدها المجمع الملكي للدراسات الإسلامية (آل البيت) بالأردن ، حيث كنت ثالث ثلاثة من المشاركين الذين يمثلون مصر ! شيخنا المفكر الجليل «محمد الغزالي ، والدكتور ثروت عكاشة» وكاتب هذه السطور ، وتصادف أن كانت تنقلاتنا في العاصمة الأردنية معا منذ غادرنا مطار القاهرة إلى أن عدنا إلى القاهرة .

وقد حدث ما شد انتباهي في هذا الشيخ الجليل في واحدة من جلسات المؤتمر ، حين أثار بحث الدكتور ثروت عكاشة عن التصوير الإسلامي أزمة في المؤتمر، افتعلها وزير الأوقاف السوري الأسبق ، الأمر الذي سبب انقساما بين المشاركين في المؤتمر ، حيث كان هناك من كان يؤيد البحث ، وهناك من كان يعترض عليه بشدة ، وكان موقف الشيخ محمد الغزالي موضوعيا مستنيرا ، على الرغم من الود المفقود بينه كواحد من الإخوان المسلمين ، وبين رجال ثورة 23 يوليو 1952 ، تلك التي يعتبر الدكتور عكاشة واحدا من صناعها ، إلا أنه مع ذلك تكلم بموضوعية فائقة كانت موضع إعجاب المشاركين في هذا المؤتمر ومنهم المستشرقون الأجانب ، والأشقاء العرب والممثلون عن أقطار العالم الإسلامي .

أقول : كان هذا هو اللقاء الأول والأخير - حيث رحل عن دنيانا في العام نفسه - الذي جمعني مع هذا المفكر الجليل فاكتشفت في شخصيته مصداقا للمثل الفرنسى الذي يقول : «الرجل هو الأسلوب» فصفحات كتبه التى أتيحت للمرء قراءتها لا تختلف كثيرا عن مداخلاته وتعقيباته في المؤتمر ، كما لمحت في أحاديثه وكتاباته نموذجا من تلك النماذج التي قرأت عنها للعلماء المسلمين الأوائل الذين تفخر بهم حضارتنا العربية الإسلامية .

فكما يقول نقاد الشيخ الغزالي ومؤرخوه : أنه شغل بكتبه وأحاديثه وخطبه حيزا كبيرا من الفعل ورد الفعل ، على مستوى الحركة الإسلامية من حيث مناقشاتها ومساجلاتها ومعاركها الفكرية والسياسية ، بل وخلافاتها الداخلية . ومن خلال أطروحات هذا المفكر الجليل انعكست روح البرنامج السياسى والاقتصادي لهذه الحركة الإسلامية المعاصرة ، فكان صاحب هذه الأطروحات قدوة ومثالا للداعية المستنير الذي يواجه الآخرين بالحجة والمنطق ، هذا الداعية الذي يرى المبدأ أرضا يقف عليها حيا أو يستشهد في سبيله ، وظل طوال حياته مهموما بقضايا أمته الإسلامية ، أمرا جعله يتجاوز الدائرة الإقليمية لينتقل إلى الدائرة القومية وربما الدائرة العالمية ، حيث ذاع صيته في كل أرجاء العالم الإسلامي نظرا لمواقفه الصلبة التي لا تلين في الحق .

وإذا كان هذا هو رأيي المتواضع في مفكرنا الجليل الشيخ محمد الغزالي ، بالقياس لآراء الأساتذة والعلماء الذين عرفوه عن قرب وعاشروه عشرات السنين وكانوا من نفس طرازه الفريد ، هؤلاء الذين كتبوا عنه قبل وبعد وفاته العديد من الدراسات وتمت بينه وبينهم العديد من المناقشات الفكرية ، وأخص بالذكر الدكتور «يوسف القرضاوي» أمد الله في عمره وغيره . هذا إلى جانب ما تمت مناقشته في الجامعة من رسائل وأطروحات تدور حول الجوانب الفكرية والتجديدية ومنها رسالتان ، **الأولى** : رسالة الماجستير التى نوقشت بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر والتي وضح فيها الباحث «خالد كمال» الخصائص الفنية في مقالات مفكرنا الجليل الشيخ محمد الغزالي مثل اللجوء إلى الحوار والحكاية والأمثال العربية الفصيحة ، وكذلك المأثورات الشعبية والمزج بين العاطفة والعقل والخيال والواقع ، هذا بالطبع إلى جانب الرجوع إلى القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة ، والاستشهاد بالشعر العربي خاصة في قصائده التي تتسم بالثورية والعنف أو تلك التي تدعو إلى التغيير إلى الأفضل .

كذلك تشير هذه الرسالة إلى : أن مفكرنا الجليل محمد الغزالي كان دارسا جيدا للتاريخ وعلوم الكون ، متعمقا في الدراسات الإنسانية مثل الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والتربية ، بالإضافة إلى إلمام ممتاز بالواقع المعاش وما يدور فيه من أحداث إيجابية أو سلبية كان له فيها مواقف .

وأما **الرسالة الثانية** : فقد جاءت بعنوان: (مواقف الشيخ محمد الغزالي من قضية التخلف الحضاري للمسلمين: الأسباب والحلول دراسة تحليلية) حصل بها الباحث إبراهيم طلبة حسين، على الماجستير في الثقافة الإسلامية بكلية الدعوة جامعة الأزهر.

والحق أن قضية التخلف الحضاري قد أخذت مجالا رحبا في فكر الشيخ محمد الغزالي ؛ حيث رصد العديد من الأسباب التي منها : العقلية ، وتشمل الفقر الثقافي للمسلمين ومخاطرة اختزال الإسلام في فقه العبادات ، والاشتغال بالجزئيات على حساب الكليات ، وكذا شيوع البدع والخرافات في الحياة الإسلامية ، وترسيخ الجمود على الموروثات ، وعدم الاستفادة من تجارب الآخرين ، وغياب اليقظة الفكرية ، ومنها الأسباب الاجتماعية التي رصدها الباحث في فكر الشيخ الغزالي ، فتشتمل على تدهور وضع المرأة في فكر المسلمين ، وتجاوز الاعتدال في الترف ، وإثارة العصبيات والنعرات واختلال التوازن الاجتماعي . ومنها الأسباب النفسية كالغرور بالتدين وتفشي الرياء ، والأسباب السياسية التي أجملها الشيخ الغزالي في مشكلة الوراثة في الحكم وغياب مبدأ الشورى ، وأثر الحكم الفردي على الفكر الإسلامي ، وأثر الاستعمار السياسي على واقعنا المعاصر ، ومساوئ الديمقراطية الغربية على العالم الإسلامي ، ومنها : الأسباب العلمية التي يحددها الشيخ محمد الغزالي في مشكلة التأخر العلمي لدى المسلمين، وهجرة العقول العلمية إلى الخارج، وفساد النظام التعليمي والعلمي .

كذلك رصدت الرسالة رؤية الشيخ محمد الغزالي في النهوض والإصلاح ، وتمثل ذلك في كل المجالات التي ذكرناها وحدث فيها تخلف من جوانب اقتصادية

إلى سياسية إلى اجتماعية إلى علمية ، إلى جانب الحفاظ على اللغة العربية في محيط الحياة : إذ تبقى كلمة الشيخ الغزالي المشهورة : « الأمة التي تفقد لغتها كالفتاة التي تفقد عرضها » .

وفي غير ذلك من الرسائل الجامعية التي دارت حول فكر الشيخ الغزالي ، وجهوده في مجال تجديد الفكر الإسلامي .

ولعلنا نستأنس في ذلك بالرأي الممتاز الذي كتبه الأستاذ الدكتور «محمد مورو» وعنوانه : « الشيخ الغزالي شاهد على العصر » لما فيه من توضيح لمواقف وأعمال لهذا الداعية الجليل حيث يقول :

« وبقدر ما أثار الشيخ محمد الغزالي من قضايا حيوية من خلال مواقفه أو من خلال مقالاته الكثيرة في الدوريات المختلفة ، أو من خلال محاضراته المهمة بقدر ما أثار من خلافات معه أو حوله أو ردود فعل مؤيدة أو معارضة، وهذا شأن أي مفكر يقرر أن يناقش القضايا الحية المطروحة على الساحة والتحديات التى تواجه الأمة الإسلامية، ولا يلوذ بالقضايا الميتة أو التى لا رصيد لها في الواقع. وهكذا فإن دراسة حياة الشيخ محمد الغزالي ، هى دراسة في الوقت نفسه لجزء مهم من تاريخ الحركة الإسلامية في مصر عموما ، وحركة الإخوان المسلمين خصوصا بدءا من الإمام الشهيد حسن البنا حتى الآن ..

كان فكر الشيخ الغزالي دائما فكرا مرتبطا بالواقع ، وكانت اجتهاداته الفقهية مرتبطة دائما بأحوال المسلمين في وقتها ، وسواء أصاب أم أخطأ فإنه اختار الطريق الصعب ، ولم يتدثر بعباءة السكون والاكتفاء بطرح القضايا الكلية دون الخوض في الواقع الذي تعيشه الحركة الإسلامية أو الذي تعيشه جماهير المسلمين » .

وفي مواجهة الشيخ الغزالي للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية قبل ثورة يوليو يقول الدكتور «مورو» : « ففى مواجهة الأوضاع الاقتصادية المتردية والاجتماعية الظالمة التي كانت تعيشها مصر قبل 1952 من رأسمالية زراعية بشعة وظلم مستمر

للفلاحين والعمال وتفاوت طبقي رهيب كانت كلمات ودراسات الشيخ محمد الغزالي تدافع عن حقوق الفلاحين الفقراء والعمال المطحونين في مواجهة الرأسمالية والملكية» وهكذا جاءت دراساته المهمة مثل : (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) - (الإسلام المفترى عليه بين الرأسمالية والشيوعية) .

وفي مواجهة الاستعمار الإنجليزي الجاثم على صدر مصر في ذلك الوقت والاستعمار عموما ، الجاثم على صدور جماهير الشعوب المستضعفة في العالم الثالث كان كتابه : (الاستعمار أحقاد وأطماع) .

وفي مرحلة الستينيات - حيث تزايد المد الاشتراكي في العالم الإسلامي - مع ما ارتبط به من قمع هائل للحركة الإسلامية ، جاءت دراسات الشيخ محمد الغزالي لتؤكد هوية الأمة ، وأن خلاصها ليس إلا في الإسلام مثل كتابه : (الإسلام والمناهج الاشتراكية) . وكذلك مجموعة دراساته عن سيرة الرسول - ﷺ - أو دراساته التي تدعو إلى الصبر والصمود في مواجهة المحنة وتحدد أبعادها مثل : (كيف نفهم الإسلام؟) وكتاب : (من معالم الحق) . وفي المرحلة الحالية حيث انتشرت مفاهيم القشرية والجمود والاهتمام بالقضايا الجانبية جاء كتابه المهم : (السنة بين أهل الفقه وأهل الدين) - ويصفه البعض بأنه بيروسترويكا إسلامية - وقد أثار هذا الكتاب ردود فعل حادة ومنتقدة لدى بعض اتجاهات الحركة الإسلامية التي تميل إلى الأخذ بالأصعب والأشد في أمور الإسلام ، إلا أن ذلك لم يفت في عضد الشيخ الغزالي بل زاده تصميما على خوض المعركة ضد الجمود والشكلية ، والاهتمام بالقضايا الجانبية على حساب القضايا الجوهرية للأمة .

وقد كان الغزالي دائما كمفكر ، يبادر إلى الرد على كل هؤلاء الذين يحاولون النيل من الإسلام كدين شامل، أو يروجون للمذاهب المادية مثل الشيوعية وغيرها. فقد أصدر كتابه: (من هنا نعلم) ردا على الأستاذ «خالد محمد خالد» الذي حاول أن

يدعي أنه لا سياسة في الدين ولا دولة في الإسلام في كتابه : (من هنا نبدأ) . وقد تراجع الأستاذ خالد محمد خالد عن هذه الأقوال والآراء فيما بعد ، كما أصدر الشيخ محمد الغزالي كتابه : (الإسلام في مواجهة الزحف الأحمر) كرد على الترويج للشيوعية في مصر والعالم الإسلامي.

وعن فكر الشيخ الغزالي من بعض كتبه يستطرد الدكتور «مورو»: «وإذا حاولنا أن نكون رؤية في فكر الشيخ محمد الغزالي من خلال كتبه ودراساته المنشورة ، نجد أنه يميل دائما إلى فتح باب الاجتهاد والاهتمام بالقضايا الحيوية والمطروحة وينحاز صراحة إلى مدرسة الرأي في الفقه الإسلامي ؛ على اعتبار أن الفقه الإسلامي قد انقسم منذ البداية إلى مدرستين هما : مدرسة الحديث - ومدرسة الرأي . والمدرسة الأولى (مدرسة الحديث) بدأت بالصحابي الجليل عبد الله بن مسعود وانتهت إلى ابن حزم الأندلسي مع وجود مذاهب فقهية شديدة التأثير هي (مدرسة الرأي) وهي التي مثلها كبار الصحابة رضوان الله عليهم جميعا مثل الإمام على بن أبي طالب وعمر بن الخطاب، وانتهت إلى مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي والليث بن سعد. الشيخ الغزالي يرى ضرورة التقريب بين المذاهب الإسلامية المختلفة ، ويرى أن التعصب هو نقيض التدين ، وأنه لم يكن من أخلاق مؤسسي المذاهب ذواتهم » .

وعن ربط الدعوة بالعمل الاجتماعي والسياسي كان الشيخ الغزالي يربط الدعوة بالعمل الاجتماعي والسياسي عموما ، وهو يرى أن الحرية هي أهم مبادئ الإسلام ، ومن هنا ، فإنه دائما يدافع عن الحريات باعتبار أنها فريضة إسلامية وينعى على الاستبداد والمستبدين ، ويرى أنهم أشد فتكا وخطرا على الإسلام من الكفار .

ومن النادر أن نجد مقالا أو كتابا للغزالي يخلو من الهجوم على الاستبداد والمستبدين ، وقد أفرد لهذا الموضوع دراسة خاصة هي (الإسلام والاستبداد السياسي) .

ويرى الشيخ الغزالي أن على المسلم أن يناضل من أجل الحريات السياسية بأوسع مدلولاتها ، وأنه مع التعددية السياسية سواء في إطار الإسلام أو حتى في خارج الإطار ؛ لأن الجماهير قادرة على لفظ كل ما هو غير إسلامي في حالة سيادة الحريات وفي جو الانفتاح الفكري. وفي هذا الصدد يحرص الشيخ الغزالي على تأكيد: حق تشكيل الأحزاب ، حق تداول السلطة ، حق إصدار الصحف ، حرية التظاهر السلمي ، حرية الإضراب السلمي ، حق الاجتماع ... وغيرها من الحريات .

وعن تخلف المسلمين يسجل «الدكتور مورو» رأيا للشيخ الغزالي الذي يقول فيه بصراحة وشجاعة : « إن المسلمين حاليا متخلفون ، وأن هذا يسيء إلى الإسلام ويسيء إلى المسلمين أنفسهم، وأنه يجب على كل مسلم أن يعمل بكد ودأب لتحصيل العلم والمعرفة والتفاني في عمله حتى لا نصاب بالمزيد من التخلف ، على اعتبار أن التقدم العلمي والصناعي هو تراث إنساني ، وأن علينا أن نحرز فيه السبق لا أن نكتفي باستهلاك منتجات غيرنا أو فتات موائدهم العلمية والصناعية . وفي الوقت نفسه ، علينا أن ندرك أننا أمة صاحبة حضارة متميزة ومتفرقة ، وأخص ما ندعو إليه هو العلم والتعلم والإيجابية في الحياة الدنيا وتعميرها » .

ولا يفوت باحثنا الدكتور مورو أن يختم بحثه بالقول : « إذا .. فالشيخ محمد الغزالي يمثل مشروعا فكريا إسلاميا متكاملا مستمدا من الإسلام بصورة أصيلة وواعية ومجتهدة في نفس الوقت ، فهو يؤكد على تميزنا له ، وهو أيضا يقدم برنامجا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا مستمدا من الإسلام ومراعيا ظروف الواقع الذي نعيشه في نفس الوقت » .

هل نحن في حاجة إلى مزيد من التعرف على أعمال ومواقف مفكرنا الشيخ محمد الغزالي ؟ إذا أردنا ذلك فليس هناك أفضل وأصدق مما كتبه معاصره وصديقه العالم الجليل الدكتور «يوسف القرضاوي» الذي يتحمل اليوم عبء الدعوة

والتجديد والدفاع عن الإسلام في عالم يموج بالأحداث المناهضة بل والرافضة للإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام ، بما لم تمتلئ قلوب زعمائه بالحقد الدفين ضد هذا الدين الذي ما جاء إلا رحمة للعالمين ... أقول ليس هناك أصدق وأفضل مما سطره قلم الدكتور القرضاوي عن صديقه وزميله في الكفاح [كما عرفه عن قرب] ، كتب يقول : « والحق .. أن هذه الدراسة التي قدمتها عن الشيخ الغزالي - رحمه الله - أثبتت أننا أمام قائد كبير من قادة الفكر والتوجيه ، وإمام فذ من أئمة الدعوة والفكر والإصلاح ، لها طابعها ، ولها أسلوبها ، ولها مذاقها الخاص ، وتحتاج إلى دراسات عدة لإبراز خصائصها ومواقفها وآثارها . فليس الغزالي ملك نفسه ، ولا ملك جماعة أو حركة ، ولا ملك قطر أو شعب ، بل هو ملك الأمة الإسلامية جمعاء .

لقد عاش الشيخ - رحمه الله - بشعور يغمره ويملأ فؤاده ووجدانه أبدا : أنه حارس من حراس هذا الدين الأيقاظ ، يجب أن يتنبه دائما لأعدائه في الداخل والخارج ، وأن يقف لهم بالمرصاد مدافعا ذائدا ، بل مقاتلا مهاجما ، فخير وسائل الدفاع الهجوم ، لا يلقي السلاح ولا ينشد الراحة ، ومعركة المصحف في العالم الإسلامي قائمة والحرب على الإسلام وأمته دائرة ، لم تنطفئ لها أوار ، والدم الإسلامي مستباح ..

لقد كتبت الأقدار على الشيخ أن يحارب في جبهتين واسعتين :

الأولى : جبهة الخصوم الكائدين للإسلام ، المتربصين به الشر ، الكارهين لانتشار أنواره وعودته إلى قيادة الحياة من جديد . بعض هؤلاء من خارج الإسلام ، وخارج أرضه ، من القوى العالمية التي تخافه أو تبغضه من اليهودية والصليبية (يقصد الشمالية في أوروبا والغرب) والشيوعية والوثنية ، الذين اختلفت دياناتهم ، واختلفت طرائقهم ، ولكن اتحدت أهدافهم على ضرب الإسلام ، ووقف مسيرته ،

ووضع الأحجار والعثرات في طريقه . وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾(1) ..

والجبهة الثانية : جبهة (الأصدقاء الجهلة) للإسلام ، الذين يضرون الإسلام أبلغ الضرر من حيث يريدون أن ينفعوه ، ويهشمون وجهه من حيث يظنون أنهم يدفعون ذبابة عنه ، هؤلاء الذين سماهم الشيخ (الدعاة الفنانين) الذين يشغلون الناس بالفروع عن الأصول ، وبالجزئيات عن الكليات ، وبالمختلف فيه عن المتفق عليه ، وبأعمال الجوارح عن أعمال القلوب ..

لقد كان يشكو من دعاة أغلبهم نكبة على الإسلام ، وقذى في عينه ! إنهم لا يقرؤون ولا يعانون ، والقليل من الحقائق لديهم لا يضعونه في موضعه الصحيح، وعلل الأمة لا تلقى منهم أساة ولا بكاة، لأنهم مشدودون إلى جدليات الماضي السحيق، لا يدركون ما جد حولنا ، ولا الطفرات الهائلة التي قفزت بها الحياة على أرضنا ..

وإذا كان الجسم المصاب بفقر الدم يسقط في أول مراحل الطريق ، فالعقل المصاب بفقر المعرفة أعجز من أن يلاحق مطالب الجهاد ، أو يلبي حاجات الحق .

إن مكمن الخطر على مستقبل الإسلام ومستقبل أمته ، وصحوته تكمن في هؤلاء الذين وجه إليهم الشيخ جل كتبه في المرحلة الأخيرة ، عساهم أن يتعلموا من جهل ، وينتبهوا عن الإعجاب بالرأي ، والازدراء للغير ، وأن يتعلموا الذلة على المؤمنين ، والتوقير للكبار ، والرحمة للصغار ».

يقول الشيخ : « والخطورة تجيء من أنصاف متعلمين أو أنصاف متدينين ، يعلو الآن نقيقهم في الليل المخيم على العالم الإسلامي ، ويعتمد أعداء الإسلام في أوروبا وأمريكا على ضحالة ذكرهم في إخماد صحوة جديدة لديننا المكافح المثخن بالجراح ..

---

(1) الأنفال : 73 .

إن الحضارة التي تحكم العالم مشحونة بالأخطاء والخطايا ، بيد أنها ستبقى حاكمة ما دام لا يوجد بديل أفضل !..

هل البديل الأفضل جلباب قصير وسروال طويل، أم عقل أذكى، وقلب أنقى، وخلق أزكى وفطرة أسلم ، وسيرة أحكم ؟..

لقد نجح بعض الفتيان في قلب شجرة التعاليم الإسلامية ، فجعلوا الفروع الخفيفة جذوعا أو جذورا ، وجعلوا الأصول المهمة أوراقا تتساقط مع الرياح ! وشرف الإسلام أنه يبني النفس على قاعدة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[1] . وأنه يربط الاستخلاف في الأرض بمبدأ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[2] ».

وهذا ما يخيف الشيخ الإمام الغزالي ويثير فزعه على غد الأمة وهو ما نراه في كتبه حيث يقول رحمه الله في كتابه : (هموم داعية) : « لقد خامرني الخوف على مستقبل أمتنا لما رأيت أفرادا مشتغلين بالحديث ينقصهم الفقه ، يتحولون إلى أصحاب فقه ، ثم إلى أصحاب سياسة تبغي تغيير المجتمع والدولة على نحو ما رووا ورأوا !!..

إن أعجب ما يشين هذا التفكير الديني الهابط هو أنه : لا يدري قليلا ولا كثيرا عن دساتير الحكم ، وتظالم الطبقات ، ومشكلات الشباب ، ومتاعب الأسرة ، وتربية الأخلاق ، ثم هو لا يدري قليلا ولا كثيرا عن تطويع الحياة المدنية ، وأطوار العمران لخدمة المثل الرفيعة ، والأهداف الكبرى التي جاء بها الإسلام ..

إن العقول الكلية لا تعرف إلا القضايا التافهة ، لها تهيج ، وبها تنفعل ، وعليها تصالح وتخاصم ! هززت رأسي أسفا ، وأنا أرمق مسار الدعوة الإسلامية !..

---

(1) الشمس : 9 ، 10 .

(2) الحج : 41 .

إن الرسالة التي استقبلها العالم قديما استقبال المقرور للدفء، واستقبال المعلول للشفاء، هانت على الناس فلم يروا ما يستحق التناول، وهانت على أهلها فلم يدروا منها ما يرفع خسيستهم ويحمي محارمهم».

ويقول في مقدمة كتاب: (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) يقول: «رأيت أن أكتب هذه الصحائف الحافلة بالحقائق العلمية والتاريخية، وأودعتها صرخات قلب غيور على دينه، شفيق على أمته وأعرف أنني بكتابتها سأتعرض لعداوات مميتة!! ولكن بئست الحياة أن تبقى ويفنى الإسلام!!».

ويقول أيضا في مقدمة كتاب: (قذائف الحق): أعداء الإسلام يريدون الانتهاء منه، ويريدون استغلال المصائب أنى نزلت بأمته، كي يبنوا أنفسهم على أنقاضها. يريدون بإيجاز القضاء على أمة ودين».

ليكون الرد على ذلك من راحلنا الجليل محمد الغزالي تصميما يتجسد في هذه العبارة: «وقد قررنا نحن أن نبقى وأن تبقى معنا رسالتنا الخالدة، أو قررنا أن تبقى هذه الرسالة، ولو اقتضى الأمر أن نذهب في سبيلها، لترثها الأجيال اللاحقة».. إلى أن يقول في نهاية المقدمة:

«إن الله أخذ على حملة الوحي أن يعالنوا به ويكشفوا للناس حقائقه، وأكد عليهم ذلك في قوله تعالى: ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ ﴾(1) ». إلى آخر ما جاء به فكر الشيخ الغزالي.

وبعد... فهذا قليل من كثير من حصيلة ما قرأته من أبحاث ودراسات ومقالات دارت حول أعمال ومواقف مفكرنا الجليل محمد الغزالي إلى جانب كتبه وكتاباته.

* * *

(1) آل عمران: 187.

خالد محمد خالد

يعتبر المفكر الإسلامي الراحل خالد محمد خالد ، من مجـددي القـرن الخـامس عشر الهجري حيث ولد عام 1338هـ وتوفي عام 1417هـ ، وذلك لتفـرده بأسـلوب مميز ، يتبينه القارئ له ولغيره من بين عشرات المفكرين الإسلاميين المعاصرين ، هـذا الأسلوب الذي تميز به في تناوله للمادة الإسلامية ، وللقـضايا التـي تـشغل الإنـسان المسلم إلى جانب كونه واحدا من مفكري الإسـلام المـستنيرين الـذين اسـتطاعوا أن يمزجوا الفكر الديني بالفكر السياسي مزجا فريـدا مـن نوعـه ؛ بحيـث لا يجعلـون الفكر السياسي المجرد يطغى على معطيـات الفكـر الإسـلامي ، ولا الفكـر الـديني يطغى على متطلبات السياسة ومعاصرتها للأحداث .

والحق ، أن «خالد محمد خالد» وهو على هذا النحو ، كان من قلائـل تطلبـتهم ظروف وأحوال زمانهم ، بما في هذا الزمان من تحولات إبان النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري ، وقـد كـان في مقدمـة الرجـال الأوفيـاء لعقيـدتهم ، المـدركين لمتطلبات العصر بما فيه من تحديات وأزمات، حتى صدق عليه ، أو على أي من رفاقه القول : بأنه يفد على الدنيا بين الحين والحـين رجـل .. يهـز وجـدان النـاس ويحـرك مشاعرهم ؛ حيث يتحدث بلغتهم ويعزف لحنهم ، ويعيش آلامهـم ويعـانق آمـالهم وقد يكون هذا الرجل كاتبا أو مفكرا أو عالمـا أو فنانـا أو عبقريـا في أي جانـب مـن جوانب الحياة ، ولكن أمته تحس بأنها أنجبته بعد طول انتظار ، وأنه جاء - في لحظـة فارقة - كنقطة الضوء التي تبدو في جوف الظلمة .

وفي دنيا الإسلام ، عاش الناس الأجيال والقرون ينتظرون مثل هـذا الرجـل ؛ لأنه في غيبته ، كان الغزو الفكري الـمعادي لتاريخنـا يجـد المنـاخ الملائـم لعمليـات

التدمير والتخريب ، التي يقوم بها حين كان عدوانه يتسلل ليجهز على ما بقي من صور إيمانية تعيش بين جنباتنا ولتغتال كل الأحلام والأمنيات التي تعيش الأمة على أمل اللقاء بها .

وفي عصر اختصار المسافات التي يعيشها العالم الإسلامي ، كان لابد أن يكون هناك رجل من هذا الطراز أو رواد من طراز نادر من أمثال : «الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي ومحمد إقبال وأبو الكلام آزاد ومالك بن نبي ووحيد الدين خان» ، ومن هؤلاء الرواد المسلمين كان خالد محمد خالد الذي بدأت كلماته منذ بداية النصف الثاني للقرن الرابع عشر الهجري وكأنها محراث واثق يشق أرض الفكر ، لتنبت بدلا من الأعشاب والأشواك : قمحا وأزهارا . بالطبع بعد تخرجه في الأزهر الشريف كانت كلمات خالد محمد خالد حانية ومحددة ، تمضي في محاولة جادة ومخلصة لبعث الأسس التي قام عليها مجدنا الماضي ، لتكون هي نفس الأسس التي نبني عليها الحاضر والمستقبل ، ولتعيش القيم والمبادئ التي حكمت سلوك أجدادنا وأسلافنا ، كواقع للآباء والأحفاد ، ولتفتح الطريق - الذي ظل فترة وكأنه مسدود - واسعا وممهدا أمام عشرات بل مئات من الكتاب والمفكرين الذين تنتظرهم أمتنا للإسهام في هذه المحاولة الشاقة التي ترى الماضي في صورة الحاضر ، ولا تحتبس الحاضر وراء تخوم الماضي .

ولقد وضعت كلمات خالد محمد خالد علامات بارزة ومضيئة على طريق التفكير الإسلامي المستنير الذي تقترب فيه قوافل الشباب باحثة عن الأمن والاقتناع، عن الأمل والمستقبل ، وكانت كل واحدة من هذه العلامات توضع بحساب دقيق، ووفق منهج وصفه أحد كبار المفكرين بأنه المنهج الذي يضع عيوننا ليس على الأسلوب الأفضل ، بل الأسلوب الأمثل الأوحد الذي نستطيع أن نمزج به روح الإسلام بروح العصر .

وهكذا .. كان خالد محمد خالد كاتبا موهوبا ، يبدأ من حيث يبدأ ، ثم يطوف بمجالات الفكر ، حتى يصل إلى مكانه الحقيقى ، الذي يحس بأنه إنما خلق له ، ويجد المنطقة التى لابد أن يدعمها بفكره وآثاره ، ولطالما كان مهموما ومهتما بالتجديد والابتكار حتى حين يعرض القديم ، ولطالما كانت دعوته : أن ينصرف الكتاب عن فكر الدروب المطروقة إلى فكر الإبداع والابتكار ، القائم على الدراسة العميقة والأناة والخلق الغني ، والإبداع الفكري المتفرد .

إن خالد محمد خالد الذي تميز بمثاليته وخلقه، بوضوح فكرته ونبل شخصيته ، بروحه العميقة ووفائه المنقطع النظير ، لابد أن يكون له منهج يميزه عن غيره ، ولعله يعلن عن هذا المنهج في مقدمة كتابه : (إنه الإنسان) فيقول : «في صحبة تفاؤل عظيم بمستقبل الإنسان كتبت هذا الكتاب ، وفي صحبة هذا التفاؤل أعيش دوما وأحيا ، وصاحبكم من الذين يربطهم بالإنسان ولاء غير مجذوذ ، ولا محدود ، وكل ما في الناس من ضعف، لا يصرفنى عن رؤية الإنسان الكامن في داخل ذواتهم وصنوفهم، والكادح إلى الكمال كدحا فملاقيه ..صحيح أننى - أحيانا - أبتئس بما يفعلون وبما أفعل ، ويتراءى لي مشهد الفيلسوف الإغريقى «ديوجينز» حين صاح من فوق ربوة عالية قائلا : أيها الناس.. فلما سارعوا إليه هز رأسه أسفا وقال : لم أنادكم ، أنا أنادي الناس . لكن الإنسان لا يلبث أن يظهر ، متربعا على عرشه القديم فوق كل هذه الفوضى ، حاملا مشعله المضيء وسط كل هذا الظلام ، فتذهب من فورها تلك الحسرات الكاذبة ، وتتطاير غواشي الكآبة واليأس أمام عظمته السابقة».

ثم يقول : « ينبغى أن نثق بالإنسان ، ونطمئن إلى مصيره ، وينبغى أن يكون جهادنا دائما مرتبطا بجهاده ومتمما له ، وأن نتحرى مشيئته ونعمل وفقها ، علينا أن ننقل الإنسان إلى حياتنا ، ونملأها برؤاه وبإصراره ، وعلينا أن نعمل من أجل مستقبله ومصيره ، لنثق تماما ، أن هذه الأرض لن تشهد يوما ما جنازة الإنسان ، فالإنسان الذي قضى ملايين السنين في أحضان التطور لكي يبلغ الرشد الذي يبدأ

منه رحلته الجادة الصاعدة ، لن يقضى نحبه حين تدق ساعة رشده وتبدأ بشائر عصوره، ولقد دقت الساعة وأهلت البشائر ، ولو لم يبق من البشر سوى ألف أو مائة ، فسيعمل الإنسان داخل هذه الألف ، أو هذه المائة . وإذا لم يبق من نوعه إلا عشرة فسيعمل مع هذه العشرة ، وإذا لم يبق إلا واحد فسيبدأ بناء عالمه الجديد بهذا الواحد ، وإذا فنى هذا الواحد أيضا ، فسيكمن الإنسان داخل (أميبا) يهرب بها من الفناء ، ويبعث من داخلها نفسه مرة أخرى ، وينشر وجوده وحياته ورسالته من جديد .. ».

وهكذا .. يرسم خالد محمد خالد لنفسه منهجا حين يؤمن بالإنسان ، وهو بهذا يضع نفسه في صف كتاب الإنسانية الذين يبحثون في وعى وذكاء عن قضاياه ، ويعيش مهتما ومهموما حتى يضع لها الحلول ، وهو أسلوب أو منهج موفق في الكتابة ، متصل عندما يصل إلى الغاية ، والهدف سيكون من أعظم أعمال الفكر الإسلامى والعربي . وهذا لعمري جوهر التجديد الذي أتى به خالد محمد خالد حيث أضاف إلى صرح الفكر الإسلامي بناء جديدا خاصا به وحده .

وإذا ما حلقنا مع مؤلفات خالد محمد خالد الخاصة بالإسلام ، فإننا نكتشف صدى لهذا الأسلوب أو المنهج ؛ لأنها من ذات الروح والوجدان ، تلك التى تصل صاحبها بما في الإسلام من قدرة على تحقيق آمال المستقبل لهذا الإنسان الذي يثق فيه ويؤمن به ، بالقدر الذي تعكسه حياته في الماضى من نور وبهاء ، هذا إلى جانب أسباب أخرى تربط هذا الإنسان بما في الفكر الإسلامى من مبادئ تجعل الماضي يعيش في الحاضر ولا تجعل الحاضر أسيرا لأشكال الماضي .

وهذه المبادئ هي التي تصنع حياتنا وتمنحها الرحابة والعبير والضياء ، بل وكل ما هو جميل وجليل .

مثلا : في الإمكان تبين ملامح هذا المنهج الذي يؤمن بالإنسان : ماضيه وحاضره ومستقبله في كتاب : (رجال حول الرسول) الذي أصدره خالد محمد

خالد في أربعة أجزاء ، فيها يتناول تجربة الحياة لمجموعة من أعلام الصحابة والرجال الذين جاهدوا مع الرسول - ﷺ - . فلقد تعودنا أن نقرأ عن أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم ، حيث يكفي بها نقرؤه بأن نرى من خلال حياتهم عظمة العصر الذي ينتمون إليه ، بل الذي ينتمي إليهم ، ولكن خالد محمد خالد حاول فيما كتبه أن يجعلنا نتعرف على مجموعة من الرجال العظام الذين عاشوا مع النبي الكريم - ﷺ - ، ونهضوا حوله ، ومثلوا فوق الأرض أعظم أدوار التفوق والعظمة . فعنده « أن بطولة أولئك الرجال في حمل أنفسهم على الزهد والورع ، التقوى والبذل ، وفي أخذها إلى كل رفيع وجليل من قيمة الحق وفضائله ، لشرف كبير للجنس البشري ، وحتى في بطولاتهم في القتال والجهاد من أجل الدين، لا تقدم مكانها العالي في عصرنا الذي يستنكف الحرب ويمجد السلام ، ذلك لأنهم مارسوا القتال المشروع في عصر كانت القوة فيه هي الحماية الوحيدة والفريدة للحق..» .

وهكذا .. يصل خالد محمد خالد في أجزاء كتابه : (رجال حول الرسول)، وفي هذا الجانب من الدراسات الإنسانية إلى غايته ، حيث تجد الإنسانية حلولا لقضاياها العليا في قيمة الفكر الإسلامي وميراثه المجيد .

مثلا عن الإيمان بالعقل ، يقول في فصل من كتابه : (الوصايا العشر) : «والذين يريدون أن ينيطوا الإيمان بالعقل وبالعلم سيجدون أنفسهم - إذا هم أحسنوا استخدام العقل والعلم في هذا المجال - أمام حقيقة الإيمان مسفرة كضياء النهار .

فالله سبحانه حين دعا الناس إلى التعرف إليه .. لم يقدم نفسه إليهم في ألغاز وأساطير ، بل قدم ألوهيته عن طريق ما يشاهدون من آثاره ، ودعاهم أن يستعملوا عقولهم في الاهتداء إليه ، ليكتشفوا بأنفسهم وجوده ، جاعلين سبيلهم لهذا النظر والتفكر .

لنقرأ – مثلا – هذه الآيات :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ﴾[1] .

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾[2] .

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾[3] .

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[4] .

فماذا تعنى هذه التوجيهات ؟ إنها تعني : أن الإيمان تجربة قبل أن يكون إذعانا.. ونظر عقلي قبل أن يكون تلقينا .

وهى دعوة صريحة إلى البحث عن حقيقة الألوهية من خلال ملاحظة الكون ملاحظة عقلية وعلمية .

وإن القرآن الكريم ليحدثنا كيف ترك الله أبا الأنبياء ، وأبا الأديان يعاني تجربة الإيمان بعقله ومحاولاته ، فراح يبحث ويتأمل وينظر ويفحص .

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾[5] .

---

(1) الروم : 9 .

(2) العنكبوت : 20 .

(3) النمل : 61 .

(4) النمل : 88 .

(5) الأنعام : 76 .

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾(1) .

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(2) ..

فأبو الأنبياء عليه السلام يسلك إلى الله طريق العقل ، والنظر والتأمل ، مقلبا وجهه في السماء ، ممعنا بحواسه في اجتلاء الغيب ، متوسلا في نطاق نسبى ، بنفس الطريقة التي يسلكها العلم اليوم ، وهي : وضع الفروض ، ثم مناقشتها وفحصها».

وفي كتابه : (كما تحدث القرآن) يكتب فصلا بعنوان : (القرآن يحدثنا عن نفسه) فيقول : « مائتان وثلاثون آية ، أو تزيد ، تحدث القرآن فيها عن نفسه وطرح خلالها كل الأسئلة التي تتعلق به ، وأجاب عنها .

ما هو ؟ من أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ هل هو سحر ؟ هل هو شعر ؟ هل هو إفك مفترى؟ هل هو أساطير الأولين ..؟ هل هو نقض لما سبقه ، أم هو مصدق الذي بين يديه من الكتاب ؟

ولماذا لم يأت جملة واحدة ؟ وهل جاء لقريش وحدها ..؟ أم هو ذكر للعالمين..؟

وما موقفه من الذين ارتابوا فيه ، والذين خاصموه وولوا عنه مدبرين ..؟

عشرات الأسئلة طرحها القرآن تباعا ، وأجاب عنها في وضوح .. كما جلى بها حقيقته ، وحكى بها قصته .

(1) الأنعام : 77 .
(2) الأنعام : 78 ، 79 .

وأول ما يلقاك حين تفتح المصحف هذه الآيات :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] .

هذا هو القرآن ، وهذه هي أسرته ..

أما هو – فـ «كتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» .

وأما أسرته ، فهم «الذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك» .

وإنها لبداية سعيدة وباهرة ، ينحى القرآن بها عن نفسه صفة الإقليمية ، والعنصرية ، الطائفية .

فجميع الذين لهم إيمان بالله ، وبالحق ، وبالغيب – القرآن كتابهم .

وهو إذا لم يأت لينقض ما سبقه ، بل جاء يكمل ويتمم .

والذين يؤمنون به ، يؤمنون حتما وضمنا بكل ما سبقه من كتاب .

أما الذين يقفون بإيمانهم عند بعض الكتب السابقة لا غير ، فأولئك يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ ﴾[2] .

وإذا كانت التوراة والإنجيل – الكتابان اللذان يتحدث عنهما القرآن ، لم يكونا فرية ولا ضلالا – إنما كانا رحمة للناس وهدى ، فكذلك القرآن الذي جاء يتمم رسالة الكتب السابقة والصادقة .

---

(1) البقرة : ٢ – 5 .

(2) آل عمران : 3 ، 4 .

﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1] .

وفي القرآن الكريم عشرات من هذه الآيات فيها يحدثنا عن نفسه وعن الرسول - ﷺ - .

يا من جئت الحياة ، فأعطيت ولم تأخذ .

يا من قدست الوجود كله ، ورعيت قضية الإنسان .

يا من زكيت سيادة العقل ، ونهنهت غريزة القطيع .

يا من هيأك تفوقك لتكون سيدا «فوق» الجميع.. فعشت واحدا «بين» الجميع.

يا من أعطيت القدوة ، وضربت المثل ، وعبدت الطريق . يا أيها الرسول ، والأب ، والأخ ، والصديق ... إليك أهدي هذه الكلمات :

في حياء من يعلم أنه يجاوز قدره بهذا الإهداء .

لو لم يكن محمد رسولا ، لكان إنسانا في مستوى الرسول ، ولو لم يتلق الأمر من ربه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾[2] . لتلقاه من ذات نفسه : يا أيها الرسول بلغ ما يعتمل في ضميرك؛ ذلك أن «محمدا الإنسان» جاوز نضجه وارتقاؤه كل تخوم الذات وحدودها ، ولم يكن ثمة سبيل لوقف انتشار هذا النضج وهذا الارتقاء خارج الذات وخارج البيئة ، بل خارج الزمان والمكان ..

إن «محمدا الإنسان» شيء باهر ، فإذا التقى به «محمد الرسول» فإن عظمته آنئذ تجاوز كل حدود الثناء !!

(1) يونس : 37 .

(2) المائدة : 67 .

ولكن ، لماذا أضع «الإنسان» مقابل «الرسول» ..؟ أوليس الرسول إنسانا..؟ بلى - إن الرسول إنسان ، وإنما أعني بصفة «الإنسان» هنا التركيز على الطابع البشري المحض الذي يشترك فيه «محمد» مع غيره من الناس ، والذي تفوق فيه على من سواه من الناس ..

فهذا الطابع البشري بكل انفعالاته وبساطته وتلقائيته - يبهجنا ويبهرنا ؛ لأنه من صنع واحد منا ، ومن ثم فهو يمنحنا ثقة بأنفسنا واحتراما عظيما لبشريتنا التي تنجب هذا الطراز الرفيع من الخلق .

عندما نستعرض المشاهد التي تجلى خلالها إيمان أبي بكر ، نجد أنفسنا أمام سؤال بالغ الأهمية . هو : ماذا ، لو لم يكن هناك أبو بكر؟؟

وسيتألق هذا السؤال ، ويفرض نفسه بصورة آكد وأوضح عندما نعيش عما قريب مع أبي بكر في يومين عظيمين : يوم السقيفة ، ويوم الردة .

إن الأمر ليبدو كما لو كان الله سبحانه حين اصطفى «محمدا» عليه الصلاة والسلام ليكون رسوله إلى الناس اجتبى معه في نفس اللحظة «أبا بكر» رضي الله عنه، ليكمل دور الرسول . وحين تتطلع حياتنا الإنسانية إلى أساتذة نتلقى عنهم ومن سيرتهم فن الإيمان ، فإنما واحدة على رأس تلك القلة النادرة الباهرة ، رجل الإسلام الكبير : «أبو بكر الصديق» .

وتحت «ما تقول لربك غدا» من كتاب : (بين يدي عمر) يقول خالد محمد خالد : «ولو جئنا موقفه من السلطان ، حيث يتنازل الناس عن أعمارهم لقاء أيام يقضونها سادة حاكمين .. فماذا نجد ؟ أما هذا السلطان ، على ضخامة ما أحرز منه عمر ، فما شقي بشيء ، مثلما شقي بأن رأى نفسه خليفة ، وأميرا ، وحاكما .. لقد كانت أغلى أمانيه أن يظل عمر بن الخطاب لا غير ، فلا هو خليفة ، ولا هو أمير .

ولقد اقتربت منه الخلافة إثر وفاة رسول الله ، إذ بسط إليه أبو بكر يمينه في اجتماع السقيفة قائلا : هات يدك يا عمر نبايع لك .. ولكن عمر خلص منها ناجيا ، إذ قال : « بل إياك نبايع ؛ فأنت أفضل مني » .

قال أبو بكر : « أنت أقوى مني يا عمر » .

قال عمر : « إن قوتي لك مع فضلك » وسارع فمد يمينه وبايع أبا بكر ، وبايعه الناس على أثره .

وحين كان أبو بكر يودع الدنيا ، ويعهد بالخلافة لعمر . كان عمر يتقبل مكرها وكارها إمارة المؤمنين . ولولا أن يكون باعتذاره عنها في هذا الظرف الحرج الدقيق، هاربا من واجب سيسأله الله عنه غدا ، لرفض السلطان وهرب من الإمارة .

« أيها الناس ، إني قد وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم اضطلاعا بأموركم ما توليت ذلك منكم ، ولكفى عمر انتظار الحساب » ..

انظروا .. ولكفى عمر انتظار الحساب .

هذا رجل مشغول لا غير ، بالكلمة التي سيقولها له الله غدا ، وبالكلمة التي سيقولها هو لله ، والحظوظ الوافية عنده ليست في منصب أو جاه ، إنما هي في الظفر برضاء الله سبحانه ..

وفد عليه يوما جماعة من المسلمين النازحين ، فسألهم عما صادفهم من أخبار الناس في البلاد التي مروا بها . فقالوا : « أما بلد «كذا» فإنهم يرهبون أمير المؤمنين ويخافون بأسه ، وأما بلد «كذا» فإن بها قوما صالحين يدعون الله لك ويقولون : «اللهم اغفر لعمر وارفع درجته» .

وتحت عنوان: «الحاكم القديس» من كتاب: (معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز) يكتب «خالد محمد خالد» : « وراح عمر بن عبد العزيز ينشئ في طول البلاد

وعرضها دور الضيافة يأوي إليها المسافرون وأبناء السبيل ، ومضى يرفع مستوى الأجور الضعيفة ، وكفل كل حاجات العملاء والفقهاء ليتفرغوا لعلمهم ورسالتهم دون أن ينتظروا من أيدي الناس أجرا ، وسخا على ولاته برواتب كبيرة ، حتى يتفرغوا لمهامهم ، وحتى لا تضعف نفوسهم أمام إغراء الحرام .

وعلى طول البلاد وعرضها كذلك ، أمر لكل أعمى بقائد يقوده ويقضي له أموره على حساب الدولة ، ولكل مريض أو مريضين بخادم ، على حساب الدولة، وأمر ولاته بإحصاء جميع الغارمين ، فقضى عنهم ديونهم ، وافتدى أسرى المسلمين جميعا ، وأغدق عليهم العطاء ..

وكفل اليتامى الذين لا عائل لهم في جميع أقطار دولته العريضة المترامية ، وكما فعل جده العظيم - عمر بن الخطاب - من قبل ، فعل هو أيضا ، فأمر أن يفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرد ولادته ، وليس بعد فطامه ، حتى لا تتعجل الأمهات فطام الرضعاء فيتعثر نموهم ، وتضمحل قواهم .

ومن أجل ألا يتحول عطاء الدولة إلى فرصة للطامعين ، منع أن يجمع أحد بين عطاءين ، وحرم على جميع العاملين والموظفين ، الجمع بين راتبين مهما تكن الأسباب.

وهكذا تقسط الناس جميعا في عهده العظيم ما أفاءه الله عليهم من خير ورزق.

وإنا لنكاد نذهل أمام ذلك الإجماع التاريخي الذي يحدثنا عن اختفاء الفقر والفقراء في عهد التقي الورع «عمر بن عبد العزيز» ، حتى لقد كان الأغنياء يخرجون بزكاة أموالهم فلا يجدون فقيرا يأخذها - ويبسط يده إليها .

ذلك أن عدل - ابن عبد العزيز - لم يكف الناس حاجاتهم فحسب ، بل وملأهم شعورا بالكرامة والقناعة ، فلم تعد تستهويهم بالصدقات مهما تكن كبيرة

وكثيرة ، بعد أن أغناهم الله من فضله بالحق ، وبالعدل ، وبعبده الصالح : عمر ابن عبد العزيز » .

وتحت عنوان : «يوم الطائف» من كتاب (عشرة أيام في حياة الرسول) ... يقول خالد محمد خالد : « وهكذا .. نرى الرسول - ﷺ - يتخطى بآماله وبأحلامه كل عوائق القنوط ودوافع اليأس ، فهو إذ يرى أهله وعشيرته وأعرف الناس بصدقه وأمانته ، ونبل شمائله واستقامة نهجه ، حين يراهم يكذبونه ويحاربونه ، لا يستسلم لمنطق اليأس الذي يقول : إذا كان هذا صنيع الأقربين والذين يعرفون ؟ فكيف إذن يكون صنيع الآخرين !؟

لم يستسلم لهذا المنطق رغم إغرائه ، بل امتدت آماله وأحلامه إلى الآفاق البعيدة التي لا تبشر بخير ولا بعطاء .

أجل ، إنه رسول ، عليه البلاغ . « إنما أنت منذر » . « ولكل قوم هاد » .

وهكذا سافر إلى الطائف ، وهناك بدأ بثلاثة من سادتها وأشرافها راجيا أن يصيروا - إذا هداهم الله لدينه - قدوة تجري ثقيف وراءها .

وكان هؤلاء الثلاثة إخوة وأشقاء ، أبناء عمرو بن عمير ، أقبل عليهم رسول الله يدعوهم إلى الهدى ، ويحدثهم عن الإيمان ، ويبشرهم بمثوبة الله ورضوانه إذا هم ناصروه وآزروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، فقابلوه بجحود ما يسمعون ، بل جاوزوا الجحود إلى السخرية ، وتحريض السفهاء من أهليهم وعبيدهم على توجيه الإساءات المؤلمة إلى شخصه الكريم .

لقد تخلى سادة ثقيف هؤلاء عن أبسط مظاهر الخلق العربي : إكرام الضيف الغريب .. لقد كان جوابهم لدعوة الرسول إياهم أن قالوا : ألم يجد الله غيرك يرسله !؟

ثم نادوا سفهاءهم وعبيدهم ليشيعوا الرسول بالسباب والسخريات والحجارة، يقذفون بها أكرم الخلق وإمام الهداة .

ولم يفجعه الموقف على ما فيه من نذالة وسفالة ، بقدر ما توجس من خيفة الشماتة ، ومرارة التشفي حين يبلغ قريشا ، هذا هو الذي لقيه في الطائف من ثقيف .

ومضى ، تلاحقه مظاهرة السفهاء صاخبة نابحة ، حتى وجد بستانا فآوى إليه، وراح يجفف الدم الذي يسيل من عقبيه اللتين أدمتهما حجارة السفهاء .

وأخذه على نفسه الحنان ، فتندت بالدمع عيناه .. إنه منذ ولد حتى يومه هذا ، أي طوال ثمانية وأربعين عاما وهو يعيش بين الناس في مهرجان حافل بالحب ، وبالحفاوة والاحترام .. ثم ها هو ذا اليوم ، يلقى الذي يلقاه .

ولكن ، أي بأس إذا كان هذا وأضعافه معه في سبيل الله !؟ أي شرف عظيم أن يناله الضر لأنه يرفع في الأرض راية الحق والهدى والخير !؟

وأي شيء يجعل الحياة عظيمة ، سوى ألم عظيم !؟

هنالك أسند ظهره إلى إحدى شجيرات البستان ، وبسط كفيه إلى السماء مناجيا ربه وضارعا إليه .

« **اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس** » .

« **يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني** » .

« **إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟** » .

« **إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي .. !** » .

« **ولكن عافيتك أوسع لي ..** » .

« **أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك** » .

« **لك العتبى حتى ترضى** » .

« **ولا حول ولا قوة إلا بك** »[1] ..

إنها معزوفة جليلة ، لروح جليل ، إنها ابتهالات رسول أواب ، قدر الله حق قدره ، وأسلم وجهه وقلبه وكله لمشيئته ورضاه » .

وتحت عنوان : «الحسين بن علي في يومه العظيم» من كتاب : (أبناء الرسول في كربلاء) يكتب خالد محمد خالد صفحات مفعمة بالحزن والأسى حين بدأت أول فتنة في الإسلام فيقول : « وتقدم أبناء « الحسين » وأبناء « الحسن » : أبو بكر ابن الحسين ، وعبد الله ابن الحسين ، والقاسم بن الحسن ، كما تقدم أبناء جعفر ابن علي بن أبي طالب عون ، ومحمد ، وعبد الله ، وأبناء « عقيل بن أبي طالب » : عبد الله الأكبر .. وعبد الله الأصغر .. وجعفر ..

وأبناء «مسلم بن عقيل» الذي قتله ابن زياد في الكوفة : محمد وعبد الله ، كما تقدم محمد بن أبي سعيد بن عقيل ، تقدموا جميعا في بطولة تتحدى نفسها !!

واندفع أصغرهم سنا : - القاسم بن الحسن - يهز سيفه في الهواء الساخن ، ثم يهوى به فوق الأعناق الضالة الظالمة ، حتى نالته سيوفهم فهوى كالنجم ، ينادي : يا عماه ..!!

ونسي «الحسين» ما حوله من هول ، وانطلق كالصغير صوب قاتل ابن أخيه، حيث شد عليه شدة الليث ، وضربه بسيفه ، فبتر يده الشقية ثم طرحه أرضا ، حيث داسته خيل جيش ابن زياد ، فهلك تحت حوافرها ، وانثنى «البطل» نحو ابن أخيه يضمه ، ويشمه ، ويتملى في جسده المثخن رونق الزهور .

---

(1) رواه ابن ماجه .

ولأول مرة سالت عبرات الأسد ، وقال يخاطب الجثمان المسجى بالمجد :

- عزيز والله على عمك ، أن تدعوه فلا يجيبك .. أو يجيبك ، فلا ينفعك في يوم- كثر واتره .. وقل ناصره ..

ثم حمله بين ذراعيه ، إلى حيث أرقده بجوار ابنه علي ، ثم عاد لهول المعركة من جديد .

لك الله ، أبا عبد الله !! وهل اختارتك المقادير لهذا العبء الذي يدغدغ الجبال، إلا وأنت له كفؤ وبه جدير ؟؟ » .

* * *

الشيخ محمد متولي الشعراوي

الداعية الكبير الشيخ الجليل محمد متولي الشعراوي - رحمه الله - ولد عام 1330هـ وتوفي عام 1419هـ . يعتبر من مجددي القرن الخامس عشر للهجرة ، وذلك لتأثيره المنقطع النظير على الجماهير ، أقول : الجماهير بكل فئاتها وأطيافها ، العامة منهم والخاصة ، الأدباء أو السياسيون ، العلماء أو الفنانون ، وهو أمر لم يحدث له مثيل معاصر لعالم أو داعية أو فقيه من العلماء أو الدعاة أو فقهاء الدين ، لم يحدث لواحد من هؤلاء الاهتمام به مثلما حدث مع هذا الشيخ الجليل .

إن نظرة واحدة إلى الذين يقصدون ندواته أو أحاديثه الأسبوعية في واحد من مساجد القاهرة أو أقاليم مصر أو مدنها ، والتى تنقلها القنوات المرئية أو المسموعة لتحقيق فائدة أكبر بالنسبة للمشاهدين أو المستمعين ، تكفى وتزيد للدلالة على أن هذا الشيخ الجليل يجمع حوله هذا العدد الغفير والمتنوع من المريدين الذين يسعون إليه دون إلزام من أحد ، أو حتى يكون معنى هذا السعى لمآرب ومصالح شخصية أو فوائد مادية . والأغرب تراهم ساكتين - وكأن على رؤوسهم الطير - لا يصدر عن أي منهم نأمة أو حركة ، إلا إذا كان ذلك على سبيل الاستحسان ، أو لتوجيه سؤال ، والشيخ الجليل ماض في تفسيراته وتحليلاته بتدفق ، لا يفسره سوى القول بأنه فتح من الله وهبه لعبد من عباده ، وفي الجانب الآخر تجد هؤلاء المريدين مشدودين إليه من أفئدتهم وقلوبهم ، بشكل لم يحدث له مثيل فيمن رأيناهم من شيوخنا الأجلاء .

والمرء يدهش حين يدرك ويعرف أن ذلك يحدث تلقائيا وعن طيب خاطر ، فلم يحدث أن طلب هذا الشيخ الجليل من أحد أو من جماعة ، الحضور إلى ندواته أو

أحاديثه ، المفتوحة لكل عابر سبيل . كذلك يدهش المرء حين يدرك ويعرف أن هؤلاء المريدين لم يحضروا ابتغاء مصلحة أو فائدة مادية ، بل على العكس إنهم يحضرون للاستفادة المعنوية التي تحقق لهم معرفة أمر دينهم .

وقد يدهش المرء الذي يتابع ندوات وأحاديث الشيخ الشعراوي إذا أدرك أن هذه الأعداد الغفيرة من المريدين يزدادون عددا وتنوعا يوما بعد يوم مع مرور الوقت ، وكأن هناك خيطا رفيعا غير مرئي يجذبهم ويشدهم إليه ، هذا الخيط غير المرئي لعله يتجسد في معاني الارتقاء بهم إلى ما يحبه ويرجوه ويتمناه الإنسان المسلم من إيمان يستقر في القلب ويصدقه العقل . وقد يزداد المرء دهشة حين يلمح صدى لهذا القبول الذي يحظى به هذا الشيخ الجليل من مريديه ، لا يقابله غرور أو تعال منه، بل على العكس ربما يزيده هذا القبول المنقطع النظير إحساسا بالمسئولية التى تقع على عاتقه تجاه هؤلاء المريدين ، وهو شعور الإنسان المسئول عن كل ما يصدر منه من أقوال أو أفعال تتعلق بعلاقة الإنسان بالله عز وجل وكتابه المبين وسنة رسوله الكريم .

ولعل هذا القبول الذي كان يحظى به الشيخ الشعراوي ؛ وذلك لإقبال مريديه من كل حدب وصوب كان يسبب له - أحيانا - بعض المتاعب ؛ حيث كانت أحاديثه وندواته توضع تحت مجهر الرقباء بسبب تأثيرها الشديد على هذه الجموع ، أمرا تسبب عنه منع إذاعة ندواته وأحاديثه أو حتى إقامتها ، بقرار في عصر الرئيس أنور السادات ، وظلت على هذا النحو ممنوعة إلى أن تولى الرئيس حسني مبارك زمام الأمور ، فأمر بإقامتها وإذاعتها خاصة بعد أن تبين أن هذا الشيخ الجليل لم يخرج في أحاديثه وندواته عن الإطار الديني الواجب عليه أن قدمه للناس كرجل أوتي العلم فلا يضن به على غيره ، بل من واجبه أن يهديهم إلى الطريق المستقيم . فلم يكن يناصر في ذلك حزبا أو جماعة ، ولم يعرف عنه أنه كان نصيرا لأي اتجاه من الاتجاهات السياسية أو الاجتماعية ، اللهم إلا ما حدث في شبابه من تعاطف مع

حزب الوفد القديم كحزب سياسى ، وجماعة الإخوان المسلمين في بداياتها ، حدث منه ذلك كواحد من أبناء الريف الذين كانوا يرون في الوفد كحزب وفي الإخوان كجماعة وسائل النجاة والخلاص من الأزمات والمشاكل التي كانت تعج بها الحياة المصرية قبل ثورة 23 يوليو 1952 .

بل ويذكر عنه ، أنه كان يرفض رفضا قاطعا أساليب الإخوان في الاغتيالات ، مثلما حدث في اغتيالهم للرئيس السادات ، إلى درجة أنه طلب من مفتي الجماعات الإسلامية «عمر عبد الرحمن» أن يستغفر الله بقية عمره حين أسهم في هذه الجريمة ، حدث هذا من الشيخ الشعراوي الذي لم يكن على ود مع الرئيس السادات في آخر سنوات حكمه مثلما رأينا أنه منع إقامة وإذاعة أحاديثه وندواته .

أما باستثناء ذلك ، فقد انصرف إلى العلم الذي ربط بينه وبين مئات الآلاف من الناس المنتشرين ليس في مصر وحدها ، وإنما على امتداد العالم العربي من الخليج إلى المحيط ؛ حيث حقق ما لم يحققه غيره من إيجاد قاعدة ثابتة وواسعة من الاطمئنان لدى الذين يبحثون عن الطريق إلى الله عز وجل ، ولهذا ولغيره أصبح اللجوء إليه أمرا متكررا من فنان قدير أو فنانة مشهورة يعيشان تحت الأضواء ، كما يعيشان حياتهما بالطول والعرض ، وقد استمتعا بكل مباهج الحياة ومتعها ، وأرادا أن يتوبا إلى الله بعد أن أعياهما الـمضى فيما هما فيه ، فلم يجدا من سبيل إلى ذلك إلا المرور من باب الشيخ الشعراوي الذي تلقاهما بترحيب عملا بحقيقة أن الله خالق السماء والأرض وما بينهما يقبل التوبة من عباده ، فلماذا لا يساعدهما على بلوغ ذلك إلا إذا كانت هذه رغبتهما !؟

وهناك أمثلة كثيرة لفنانين وفنانات وسياسيين وأصحاب سلطان أعياهم البحث عن هذا الطريق المؤدي إلى الهدوء النفسى والانسجام الروحي ، فوجدوا بدايته لدى الشيخ الشعراوي فاتبعوه وصدقوه ، وأنعم الله عليهم بالإيمان والهداية وعاشوا أكثر استقرارا في الحياة واطمئنانا ورضى عن النفس ، بل وغنى عن المال والناس .

ولعلنا نتساءل بعد ذلك عن الأسباب التي جعلت هذه الجموع على اختلاف فئاتها وتنوع أساليب حياتها ، يسعون إلى هذا الشيخ الجليل ويطمئنون إليه ، ويجدون في أحاديثه وندواته الهداية والرشاد والأكثر ما يطمئن قلوبهم ؟ لنترك الإجابة على هذا التساؤل لكتاب (مصريون ومعاصرون) لعضو مجمع اللغة العربية الدكتور «محمد الجوادي» حيث يذكر الأسباب في فصل من فصوله ، خصصه للشيخ الشعراوي مع هذا العدد من المصريين المعاصرين ويحددها في أربع نقاط : « **أولها** أن الشيخ الشعراوي كان يلجأ إلى العامية الراقية حين يحتاج إليها ، وكان يفعل ذلك في براءة الدعاة ، ولهذا فقد قدره مجمع اللغة العربية ودعاه إلى تبوء مقعده بين الخالدين.

وأما **النقطة الثانية** هي : أن الشعراوي كان كثيرا ما يصرح بأنه لا يقرأ إلا القرآن الكريم ولكن أحاديثه كانت تنم عن أنه لا يكف عن القراءة ، وأنه متابع جيد لكل تفصيلات الحياة والعلم والاقتصاد ، ولأدق نظريات الاجتماع ، وتطورات العلوم الحديثة ، ومنجزات التكنولوجيا ، وكان هذا أظهر ما يكون في حديثه وتشبيهاته وحواشيه ، ولكنه - والعلم عند الله - كان يلتزم الأمانة في ألا يقيد الناس بشيء يقرأونه اقتداء به .

والنقطة الثالثة هي : أن الشيخ الشعراوي كان واضح الانتماء في أفكاره السياسية، ومع أنه لم يكن ميالا إلى الحزبية بمعناها الديناميكي ، فإنه حين اختار طريقه السياسى كان دائما في الصف الذي فيه أغلبية الشعب ، وكأنه - والعلم عند الله - كان حريصا على أن يكون مع الجماعة ، وعلى الرغم من أن معظم متاعبه جاءته من هذا الاختيار بالذات إلا أنه لم يتراجع عن اختياراته السياسية المبكرة ، وظل على الدوام فخورا بوفديته المبكرة، وبعلاقته بالنحاس باشا، بل واستشراقه لأخريات أيام الزعيم «سعد زغلول» ، وفي كل حواراته السياسية وغير السياسية ، فإن الشيخ الشعراوي لم يدلس أبدا ولم يزعم على الإطلاق أنه قاد جماعة سياسية ، ولا انضوى تحت أي حركة دينية ذات طابع سياسي .

وقد سببت له صراحته في هذه النقطة كثيرا من المتاعب الخفية ، ولكنه بحكم إيمانه وعقيدته لم يكن ليعبأ بمثل هذه المتاعب ، ولا كان حريصا على أن يسترضي كل الناس .

والنقطة الرابعة هي : أن الشيخ الشعراوي كان يستعمل المنطق والفلسفة والقياس فيما استعمله الأقدمون وربما أكثر ، وكان يمعن في الاستنتاجات إلى نهايتها ما دام مطمئنا إلى وسائله ومقدماته ، ولكنه مع هذا ، كان يؤمن برحابة الفكر حتى وإن لم يدرك هذه الرحابة بما أمكنه الله من وسائل عقلية ، ولهذا فإن الاهتداء القلبي كان يقود خطواته إلى التسامح الفكري ، وتقبل رأي الآخر على الرغم من أن الجماهير ووسائل الإعلام والمشاعر الجارفة كانت طوع بنانه ، ولو كان مغرضا ولو بنسبة واحد في المليون لأشعل في العقدين الأخيرين من القرن الماضي - العشرين - حروبا لا تقل ضراوة عن الحروب الصليبية ، ولعقد محاكم لا تقل قسوة عن محاكم التفتيش ، ولكنه لحسن الحظ لم يفعل هذا ولم ينسق إليه ، وكان امتناعه عن كثير من السلوك الأرعن أعظم بكثير جدا من إنجازاته الفكرية والفقهية والبيانية . وكان الشيخ الشعراوي موفقا جدا في التوقف عند لحظة حاسمة في كل الخلافات التي اشتعلت بينه وبين أعلام الفكر والأدب والسياسة » .

ولعل الدكتور «الجوادي» يشير إلى الخلافات التى نشأت بين الشيخ الشعراوي وكل من الأستاذ «توفيق الحكيم» حين بدأ في نشر مقالات بالأهرام تحت عنوان : (حديث مع الله) . أو مع الدكتور «زكي نجيب محمود» حين انتقد بعض أقوال هذا الشيخ في حلقة من حلقاته حول فائدة الذباب فكان رد الشيخ الشعراوي على ذلك وغيره من خلافات لكنها كانت في واقع الأمر لا تخرج عن حجمها الحقيقي ، ولا تفسد للود قضية بينه وبين هؤلاء المفكرين والأدباء والسياسيين والتي كان آخرها خلافا وقع بينه وبين الدكتور «يوسف إدريس» على صفحات جريدة الأهرام رحمهم الله جميعا .

وقد يجرنا تسجيل هذه الأسباب إلى التعرف عن بعض أفكار الشيخ الشعراوي وآرائه ، فنستأنس في ذلك بكتاب : (الشعراوي مفكرا) للمسئول عن الفكر الديني بمؤسسة الأهرام الكاتب الكبير الأستاذ «محمود مهدي» رحمه الله حيث سجل في كتابه العديد من الأحاديث التي أجراها مع الشيخ الشعراوي ، والتي تكشف وتوضح الجانب الفكري في حياة الشيخ الشعراوي تلك التي تتضمنها آراؤه وأفكاره في موضوعات على جانب كبير من الأهمية ، تتركز في بعض مما سجله الأستاذ «محمود مهدي» في كتابه قائلا : «موضوعات هذا الكتاب تتعلق بالشورى ، وأنها ليست ملزمة للحاكم المسلم الذي جاء على اختيار سليم ، وبالاجتهاد وهو ضرورة ولكن ليس من الإسلام التعصب لرأي مجتهد على حساب رأي مجتهد آخر ، وفي الكتاب أحاديث عن الغزو الفكري باعتباره من أخطر القضايا التي يجب أن يهتم بها العلماء والمفكرون ، وعن واقع العالم الإسلامي اليوم وضرورة أن يتفق حكام المسلمين على موقف موحد إزاء ما يحدث الآن على الساحة الإسلامية والعالمية ، وعن مناهج التربية الدينية وضرورة أن تقوم هذه المناهج بترسيخ العقيدة باعتبارها ضرورة من ضرورات الحياة ... وعن العلم ما هو ؟ وكيف نتلقاه ؟ وما حدود الاجتهاد فيه؟ وما حدود البشر في إدراك ظواهر الكون ؟ وهل القرآن الكريم كتاب علم ؟ وكيف ننظر إلى ما فيه من إشارات علمية ؟ وعن خطبة الجمعة التي ألقاها فضيلة الشيخ الشعراوي إبان توليه وزارة الأوقاف وشئون الأزهر ، تلك التي أثارت ردود أفعال غاضبة لدى الشيعة وكادت أن تحدث أزمة بين مصر وإيران بسبب حديث الشعراوي عن الشيعة الفاطمية ، وعن الطريقة المثلى للاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف ، وعن المهدي المنتظر وهل هو شخص معين أو رمز لمعنى واتجاه في الإصلاح » .

كذلك سجل الكتاب لجانبين مهمين في حياة الشيخ الشعراوي ، ولكنهما غير معروفين عند كثير من الناس وهما عن : الشيخ الشعراوي الوطني ، والشيخ

الشعراوي الشاعر ، وغير ذلك مما حرص الأستاذ «محمود مهدي» على رصده في دقة وأناة كمنهج اتبعه في كتاباته الدينية .

كذلك ، هناك العديد من المؤلفات التي نسبت إلى هذا الشيخ الجليل ، حيث قام البعض بإعدادها للنشر بعد تفريغ ندواته وأحاديثه ، ونخص بالذكر الأجزاء المتعددة والكثيرة التي نشرتها مؤسسة أخبار اليوم في سلسلة كتاب اليوم تحت عنوان «معجزة القرآن» وهو العمل الممتاز والمفيد الذي تتضح فيه الجوانب التجديدية في التفكير الإسلامي حيث أتى هذا الشيخ الجليل بما لم يأت به أحد من قبل على اعتبار أن معجزة القرآن الكريم هي معجزة خالدة باقية إلى يوم القيامة ، والقرآن خاتم الكتب السماوية ليس له عصر ، وهو لم يأت ككتاب علم . هذه حقيقة يجب أن نضعها في أذهاننا ، ولكنه في الوقت نفسه جاء كمعجزة خالدة باقية ، ومن هنا فإن فيه إعجازا لكل العصور ، إعجازا لمن عاشوا قبلنا ، وإعجازا لعصرنا وإعجازا لمن سيأتون بعدنا حتى تنتهي الدنيا وما فيها .

هذا الكتاب المبين جاء لينذر من كان حيا ، ومن هنا فإنه موجه للأحياء ، وتحديه هو بالنسبة لمن يقيمون على هذه الأرض ، وليس لمن انتقلوا منها إلى العالم الآخر فأولئك يرون عين اليقين ، ويعرفون الحق بعد مغادرتهم دنيانا .

وكما يسجل الكاتب الراحل «أحمد زين» المشرف على إصدار هذه السلسلة المعروفة بمعجزة القرآن أن الشيخ محمد متولي الشعراوي حين كتب مقالاته في أخبار اليوم عن إعجاز القرآن ، فإن هذه المقالات أثارت ضجة كبيرة ، حيث تحدث فضيلته عن آدم وكيف علمه الله الأسماء ، وما معنى أن يعلم الله الأسماء لآدم ؟ ثم تناول بعد ذلك كيف أن الإنسان حين يتعلم الآن يجب أن يتعلم الأسماء أولا .

كذلك ، تناول الشيخ الشعراوي في أحاديثه عن معجزة القرآن الكريم : لماذا نزل القرآن ككتاب جامع للبشرية كلها ، ولماذا كانت الكتب السماوية تنزل إلى أمة أو

شعب لتعالج داء، بينما القرآن جمع المشاكل البشرية كلها. ثم روى بالتفصيل كيف أن القرآن الكريم فرق حجب الغيب الثلاثة : حجاب الزمن الماضي ، وحجاب الحاضر ، وحجاب المستقبل ، بل إنه اقتحم مجاهل النفس البشرية ليظهر ما يخبئه الإنسان ، ولا يبوح به لأحد ، ولا يعلمه إلا الله عز وجل ، وفرق القرآن بعد ذلك حجب المستقبل : القريب والبعيد ، فأنبأ عن أشياء لم يكن العقل يعتقد أنها ستحدث أو أنها يمكن أن تحدث ، وتنبأ بنتائج حروب ومصائر شعوب ، وقال لنا إن الأرض كروية ، وكشف لنا علم الأجنة قبل أن يعرفه العالم ، وتحدى البشرية في أن تخلق بعوضة أو ذبابة واحدة وكشف عما هو أصغر من الذرة ، ثم قال : « وما تحت الثرى» مشيرا إلى أن هناك ثروات هائلة في باطن الأرض ، ثم أنبأنا عن معجزة الخلق، وكيف تتم ، وأبان لنا أشياء وصلنا إليها بالعلم الأرضي ، وأشياء لم نصل إليها حتى الآن... كل ذلك أوضحه الشيخ الشعراوي حين تحدث عن معجزة القرآن .

والحق ، أن تفسير معجزة القرآن يعتبر تفسيرا عميقا ومهما لم يتناوله أحد من الأئمة حتى الآن بهذه الصورة ، ولم يقدمه بهذا الأسلوب السهل الممتنع ؛ حيث يضيف إلى المكتبة القرآنية إضافات مهمة يعتز بها كل مسلم .

وكما يذكر المشرف على سلسلة كتاب معجزة القرآن الراحل «أحمد زين» أن هذا العمل الذي قام به الشيخ الشعراوي عمل متميز وفريد ؛ حيث لم يسبقه إليه أحد ، وهو ما يجعلنا بدورنا نضعه مع الأعمال التي تضع صاحبها ضمن المجددين الذين أضافوا إلى الفكر الإسلامي المستنير أفكارا وآراء جديدة في القرن الخامس عشر للهجرة .

* * *

الدكتور يوسف القرضاوي

من مجددي القرن الخامس عشر الهجري الدكتور يوسف القرضاوي أطال الله في عمره حيث ولد في عام 1345هـ . وهو أحد علماء الإسلام البارزين المعاصرين، ويعيش حاليا في الشقيقة قطر وتجنس بجنسيتها، إلى جانب كونه متمتعا بالجنسية المصرية.

والشيخ يوسف القرضاوي من مواليد المحلة الكبرى عام 1926م أي : إنه في الواحد والثمانين – أطال الله عمره – ، ونشأ في أسرة متدينة رقيقة الحال ، وقد توفي والده وهو في الثانية من عمره فكفله عمه ، وقد التحق بكتاب قريته ، وأتم حفظ القرآن الكريم وهو في التاسعة من عمره ، كما كان يتلوه تلاوة محكمة وكان أهل قريته يقدمونه للإمامة في الصلاة في سنوات عمره الأولى ، حتى كانوا يطلقون عليه وهو لا يزال طفلا صغيرا بـ : الشيخ يوسف .

وقد جمع إلى دراسته الدينية بالمعهد الدينى في طنطا ، الدراسة الميدانية حيث نال شهادة القانونية العامة مع شهادة المعهد الدينى ليسافر إلى القاهرة ويلتحق بكلية أصول الدين لينال إجازتها التى تؤهل إلى الالتحاق بالدراسات العليا ؛ وليعد رسالة الدكتوراه وعنوانها : «الزكاة في حل المشكلات الاجتماعية» .

والدكتور يوسف القرضاوي عمل بالدعوة الإسلامية منذ فجر شبابه ، كما شارك في الحركات السياسية الإسلامية ، واعتقل أكثر من مرة ، سواء في العهد الملكى أو بعد الثورة . وقد عمل بعد تخرجه في مراقبة الشئون الدينية بالأوقاف إلى أن أعير إلى دولة قطر فعمل مديرا لمعهدها الدينى ، فرئيسا مؤسسا لقسم الدراسات الإسلامية بكليات التربية ، فعميدا لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية فمديرا لمركز بحوث السنة والسيرة بعد أن قام بتأسيسه .

يقولون عنه بأنه خطيب مؤثر يقنع العقل ويهز القلب ، وكاتب أصيل لا يكرر نفسه ولا يقلد غيره ، وفقيه مميز بالرسوخ والاعتدال ، وعالم متمكن في شتى العلوم الإسلامية ، وقد جمع بين علوم أهل النظر ، وعلوم الأثر . جاوزت مؤلفاته الثمانين مؤلفا ، لاقت قبولا عاما في العالم الإسلامي، وطبع بعضها عشرات المرات ، وترجم عدد كبير منها إلى اللغات العالمية . وهو من أبرز دعاة الوسطية في الإسلام ، التي تجمع بين السلفية والتجديد وتمزج بين الفكر والتطبيق ، وتركز على فقه السنن وفقه المقاصة ، وتوازن بين ثوابت الإسلام ومتغيرات العصر .

وفي مذكراته التي أعدها للنشر الأستاذ «بدر محمد بدر» نقرأ الكثير عن الجوانب في صباه ، ومنها حديثه عن حرب العاشر من رمضان فيقول :

« وكان من أهم ما حدث في هذا العام وفي شهر رمضان المبارك : ما فاجأنا العالم كله من حدث اهتزت له القلوب طربا ، وابتسمت له الثغور فرحا ، ولهجت به الألسنة ثناء ، وسجدت الجباه من أجله لله شكرا .

إنه الحدث الذي عوضنا عما فوجئنا به من قبل في الخامس من حزيران (يونيو) 1967م ، والذي خسرت به الأمة ما خسرت، وكسبت إسرائيل ما كسبت، وضاعت إلى اليوم - القدس والضفة والقطاع والجولان ، بالإضافة إلى سيناء التي استردتها مصر فيما بعد .

وهذا الحدث الذي أحيا الأمة العربية من المحيط إلى الخليج ، بل الأمة الإسلامية من المحيط إلى المحيط ، هو : حرب العاشر من رمضان ، وأنا أحب دائما أن أسميها: معركة العاشر من رمضان، وليس السادس من أكتوبر، لأن شهر رمضان ونفحاته وبركاته وإمداداته التي هبت نسماتها على الجنود والصائمين والمصلين كان له أثره في تحقيق النصر ، وإمداد المقاتلين بشحنة إيمانية دفعتهم إلى البذل والفداء ، أما أكتوبر ، فليس له أي إيحاء أو دخل في هذا النصر .

مازلت أذكر هذا اليوم المشرق، وقد خرجت من درس العصر في مسجد الشيخ خليفة ، فإذا الأنباء المبشرة تستقبلني ، وإذا الهواتف تدق ولا تتوقف ، للاتصال بي من هنا وهناك ، مهنئة بما وقع ، شاكرة لله تعالى ، الذي صدق وعده ، وأعز جنده ، وهزم الظالمين وحده .

في أول الأمر خفت أن نكون مخدوعين ، كما خدع كثيرون ، أيام نكبة 5 يونيو 1967م ، فقد كانت القاهرة تذيع الأكاذيب على الناس ، وتخبرهم بأخبار لا أساس لها: طائرات إسرائيلية تسقط بالعشرات ، والحقيقة أن طائراتنا هي التي ضربت في مدرجاتها ، ولم تطر حتى تسقط ، ولكن كانت الشواهد كلها تؤكد أن هذه حقيقة وليس حلما ، وأنه واقع وليس من نسج الخيال .

ألا ما أحلى مذاق النصر ، وخصوصا بعد تجرع مرارة الهزيمة المذلة من قبل ! وللأسف ، طالت هزائم الأمة في معارك شتى ، وذرفت الدموع كثيرا على هزائمها ، حيث لم تغن الجموع ، وآن لها أن تجد مناسبة تفرح بها بعد حزن ، وأن تضحك بعد طول بكاء .

لقد عبر الجيش المصري القناة ، صنع قناطر أو جسورا للعبور عليها ، مكونة من أجزاء ، تركب في الحال ، ويوصل بعضها ببعض ، فتكون جسرا فوق الماء تعبر فوقه المصفحات والمجنزرات والدبابات إلى البر الآخر ، وقد بدأ العمل فيها من سنوات ، ثم بدأت تجربتها ، والتدريب عليها منذ شهور ، في تكتم وسرية بالغة ، وهذا عمل مصري خالص ، لم يشترك فيه خبراء أجانب ، ولهذا حفظ السر ، ولم يبح به أحد .

بعد عبور القناة بسلام وأمان ونجاح ، اقتحمت القوات المصرية : ما عرف باسم خط بارليف ، الذي أقامته إسرائيل ، ليكون حاجزا ترابيا بعد الحاجز المائي ، وكانت العدة قد أعدت لتخطيه بإحكام ومهارة ، وكان كل شيء معدا بجدارة وأناة

وحكمة ، ولم يكن هناك شيء مرتجل ، وقام كل سلاح بدوره : سلاح المهندسين ، وسلاح الفرسان والمدرعات ، وسلاح الطيران ، كل قام بما هيئ له ، وما كلف به .

وقد اختير التوقيت المناسب لبدء المعركة ، وكان رمضان هو الوقت الملائم نفسيا وروحيا ، لما يمد به الجنود من نفحات ، وما يعطيهم من شحنة روحية ، وكان أكتوبر مناسبا ، من حيث المناخ ، وليس فيه حرارة الصيف ، ولا برد الشتاء . وكان الوقت مناسبا من ناحية أخرى: إنه يوم الغفران، أو عيد الغفران عند اليهود، فلننتهز غفلتهم وانهماكهم في الاحتفال بالعيد ، لنفاجئهم بضربتنا ، كما فاجأونا بضربتهم في يونيو 67م » .

وفي مؤتمر جامعة بيروت كان حديثه بمذكراته عن الحضارة العربية الإسلامية ما نجتزئه حيث يرى : « أن حضارتنا عربية إسلامية معا ، فهي عربية بحكم أن آثارها مكتوبة باللغة العربية ، وأن أهم عنصر في تأسيسها وإقامتها كان هو العنصر العربي ، حتى إن مؤرخا مثل «جوستاف لوبون» المفكر الفرنسي المعروف ، حين أرخ لهذه الحضارة آثر أن يسمي كتابه (حضارة العرب) مع أنه في الواقع والغالب يتحدث عن حضارة المسلمين .

وهي كذلك حضارة إسلامية، بحكم الدوافع والبواعث والفلسفة التي دفعت إلى إنشائها وإعلانها ، فهي بواعث إسلامية لأهداف إسلامية ، منبثقة عن تصور إسلامي ونظرة إسلامية للإنسان والعالم والدين والدنيا .

وهي إسلامية كذلك بحكم العناصر التي شاركت فيها ، فلم يكن العرب وحدهم ، هم الذين صنعوا هذه الحضارة ، بل شاركهم فرس وأفغان وهنود وروم ومصريون وأتراك وأفارقة ، ومن أجناس شتى ، وهي إسلامية أيضا بحكم الرقعة التي قامت فيها الحضارة ، فقد وسعت العالم الإسلامي كله ، بما فيه بلاد العرب والعجم ، فنجد معالم الحضارة الإسلامية في سمرقند ، كما نجدها في الهند ، كما نجدها في استانبول ، مثلما نجدها في دمشق وبغداد والقاهرة والمغرب .

وكان المحور الثاني الذي أخذ حظا من النقاش ، هو : الأصالة والتجديد ، وما المراد بهما ؟ ولم يكن مصطلح (الأصالة والمعاصرة) قد شاع في ذلك الوقت ، كما عرف بعد ذلك .

وكان الاتجاه العام للمؤتمر أن الأصالة والتجديد لا يتقابلان ، حتى نقول : بين الأصالة والتجديد ، فكأننا مخيرون بينهما ، مع أن كلا منهما مطلوب ، فنحن نريد تجديدا في ظل الأصالة . والواقع أننا بقينا تلك الأيام في جو علمي وفكري حي ، وكانت أياما خصبة ومثمرة ، وقد ألقيت فيها بحثي عن الفقه بين الأصالة والتجديد وبينت أوجه التجديد الذي ينبغي أن تدخل في الفقه من ناحية الشكل ، ومن ناحية الموضوع ، وقد نشرت البحث بعد ذلك في رسالة خاصة تحمل هذا العنوان نفسه.

ثم عدنا إلى الدوحة ، وإن كنت لم أحصل من الجامعة على ثمن التذكرة ، كما وعد «د. كاظم» ، ولكن ما كسبته من المؤتمر كان أغلى وأعظم من ذلك .

ومن فتاوى الدكتور يوسف القرضاوي التي كان يسجلها الأستاذ «حسن علي دبا» لنشرها بالأهرام العربي موضوع : التقريب بين المذاهب الإسلامية ، وغيرها ذلك الذي يتساءل حوله المسلمون ، خاصة التقريب بين الشيعة والسنة فيقول الدكتور القرضاوي: إن من المبادئ المهمة في الحوار الإسلامي - الإسلامي والتقريب بين المذاهب الإسلامية تجنب الاستفزاز من أحد الطرفين للآخر ، فالحوار المنشود أو الجدال بالتي هي أحسن كما سماه القرآن - يقتضى أن يتوخى كل من الطرفين في خطاب الآخر العبارات المثيرة والكلمات المستفزة التي تحدث التوتر في الأعصاب والحقد في الصدور واختيار الكلمات التي تقرب ولا تباعد ، وتحبب ولا تبغض ، وتجمع ولا تفرق .

ومن ذلك : ترك الألقاب التي لا يحبها أحد الفريقين : كتسمية الشيعة بـ(الرافضة) وأهل السنة بـ (الناصبية) ، وخطاب كل فئة باللقب الذي تسمي به

نفسها ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾[1] ومن أدب المسلم : إذا لقي أخاه المسلم أن يدعوه بأحب الأسماء إليه .

كيف تتم المصارحة بين الفريقين في رأيكم في ظل تاريخ مليء بقضايا شائكة ؟

يجب أن يصارح بعضنا بعضا بالمشكلات القائمة والمسائل المعلقة ، والعوائق المانعة ، ومحاولة التغلب عليها ، بالحكمة والتدرج والتعاون المفروض شرعا بين المسلمين بعضهم وبعض .

فليس من الحكمة أن نخفي كل شيء ، أو نسكت عنه ، أو نؤجله وندعه معلقا دون أن نجرؤ على إثارته ، أو الكلام فيه ؛ فهذا لا يحل مشكلة ولا يقدم علاجا ، أو يقرب بين الفريقين خطوة واحدة .

من ذلك : ما ذكرته للإخوة من علماء الشيعة حين زرتهم في إيران وهو أن من المهم أن نراعى (فقه الموازنات) و(فقه الأولويات) في العلاقة بين بعضنا وبعض ، فقد يتراءى للبعض أن ينشر المذهب الشيعى في البلاد السنية الخالصة مثل مصر أو السودان . ورأيى أن هذا عمل ضرره أكبر من نفعه ؛ لأنه يثير فتنا وبلبلة في مجتمع واحد مستقر على السنة ، ويحدث توترا وغضبا ضد الشيعة ، في حين لا تكسب الشيعة من وراء ذلك إلا أفرادا معدودين هم في غنى عنهم ، فأيهما أرجح في ميزان المصالح الحقيقية : إثارة شعب بكل فئاته ضد المذاهب أم كسب أفراد منه ؟ ومن هنا أقول : ينبغى للشيعة ألا يحاولوا نشر المذهب الشيعى في بلاد السنة الخالصة ولا لأهل السنة أن ينشروا مذهبهم في البلاد الخالصة للمذهب الشيعي إبقاء على الود واتقاء للفتنة .

يجب علينا أن نكون على حذر من كيد أعداء الأمة ودسائسهم ، التى يريدون بها أن يفرقوا جمعها ويشتتوا شملها ، ويمزقوا صفوفها ؛ فلا تتوحد على غاية ولا تجتمع على طريق .

(1) الحجرات : 11 .

ومن المعروف أن الاتحاد يقوي القلة والتفرق يضعف الكثرة ، وما نال أعداء الأمة المسلمة منها إلا يوم أن تفرقت واختصمت واختلفت راياتها وتعددت قياداتها، وتنازعوا فيما بينهم ، فهيؤوا الفرصة لعدوهم أن ينفذ إليهم وأن ينفث سمومه فيما بينهم، حتى يكيد بعضهم لبعض ويذوق بعضهم بأس بعض وحق عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام: « **لا تختلفوا ، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا** »[2] .

وعن أهمية وحدة السنة والشيعة شرعا اليوم ، يقول :

إذا جاز لبعض الناس أن يتفرقوا ويختلفوا في أوقات العافية والرخاء والنصر فلا يجوز بهم بحال أن يتفرقوا في ساعات الشدة والعسرة والمحنة . فالمفروض أن المحن تجمع المتفرقين وأن المصائب تجمع المصابين ، وقديما قال الشاعر : عند الشدائد تذهب الأحقاد .

ونحن الآن نعاني محنا قاسية وقوارع شديدة في كل وطن من أوطاننا وفي أمتنا بصفة عامة وخصوصا بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 م، فقد دخلت الأمة من مشرقها إلى مغربها في امتحان عسير وموقف خطير يستوجب منها عامة ومن علمائها ودعاتها وفصائل صحوتها خاصة ، أن ينسوا خلافاتهم الجانبية ومعاركهم الهامشية ، ويقفوا في جبهة واحدة متراصة في المعركة التي يواجهها الإسلام وأهله ، فعند المعركة يجب أن يتلاحم الجميع ويتساند الجميع ولا يعلو صوت نشاز يفرق الأمة في ساعة الخطر كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾[3] .

---

(1) الأنفال : 46 .

(2) رواه البخاري .

(3) الصف : 4 .

والمسلمون وحدهم هم الذين يختلفون ويتنازعون بعضهم مع بعض مع تـوافر الكثير من أسباب الوحدة بينهم ، وحسبهم أنهم جميعا من أهل القبلة وأنهم جميعا من أهل (**لا إله إلا الله محمد رسول الله**) ، وأنهم جميعا رضـوا بـالله ربـا وبالإسـلام دينـا وبالقرآن إماما ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا » .

وعن حرية الفكر يقول : « جاء الإسلام فقرر مبدأ الحرية ، وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كلمته المشهورة في ذلك: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، وقال علي بن أبي طالب في وصية له : لا تكن أسير غيرك وقد خلقك الله حرا . فالأصل في الناس أنهم أحرار بحكم خلق الله ، وبطبيعة ولادتهم هم أحرار ، لهم حق الحرية ، وليسوا عبيدا ، جاء الإسلام فأقر الحرية في زمن كان الناس فيه مستعبدين : فكريا ، وسياسيا ، واجتماعيا ، ودينيا ، واقتصاديا ، جاء فأقر الحرية : حرية الاعتقاد ، وحرية الفكرة ، وحرية القول ، والنقد ، أهم الحريات التي يبحث عنها البشر ، جاء الإسلام وهو دين فأقر الحرية الدينية ، حرية الاعتقاد ، فلم يبح أبدا أن يكره الناس على اعتناقه ، أو اعتناق سواه من الأديان ، وأعلن في ذلك قول الله عز وجل : ﴿ **وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ** ﴾(1) هذا في العهد المكي ، وفي العهد المدني جاء في سورة البقرة : ﴿ **لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ** ﴾(2) .

ولم يكن مبدأ الحرية قد جاء نتيجة تطور في المجتمع ، أو ثورة طالبت به ، أو نضوج وصل إليه الناس ، وإنما مبدأ أعلى من المجتمع في ذلك الحين ، جاء مبدأ من السماء ، ليرتفع به أهل الأرض ، جاء الإسلام ليرقى بالبشرية بتقرير هذا المبدأ ، مبدأ حرية الاعتقاد ، وحرية التدين ، ولكن هذا المبدأ الذي أقره الإسلام مشروط ومقيد

(1) يونس : 99 .
(2) البقرة : 256 .

أيضا بألا يصبح الدين ألعوبة في أيدي الناس ، كما قال اليهود : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾(1) آمنوا الصبح وفي آخر النهار تولوا : لقد وجدنا دين محمد صفته كذا وكذا ، فتركناه ، أو آمنوا اليوم واكفروا غدا ، أو بعد أسبوع ، شنعوا على هذا الدين الجديد ، أراد الله سبحانه ألا يكون هذا الدين ألعوبة ، فمن دخل في الإسلام بعد اقتناع وبعد وعي وبصيرة، فليلزمه وإلا تعرض لعقوبة الردة ، فالحرية الأولى حرية التدين والاعتقاد ، أما الحرية الثانية فهي حرية التفكير والنظر ، فقد جاء الإسلام يدعو الناس إلى النظر في الكون ، وإلى التفكير ﴿ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ ﴾(2) » .

وعن حرية النقد والقول يرى : « أن حرية القول والنقد أيضا أقرها الإسلام ، بل جعل ما هو أكثر من الحرية إذ جعل القول والنقد - إذا تعلقت به مصلحة الأمة ، ومصلحة الأخلاق والآداب العامة - أمرا واجبا ، أن تقول الحق ، لا تخاف في الله لومة لائم ، أن تأمر بالمعروف ، أن تنهى عن المنكر ، أن تدعو إلى الخير ، أن تقول للمحسن : أحسنت ، وللمسيء : أسأت ، هذا ينتقل من حق إلى واجب إذا لم يوجد غيرك يقوم به ، أو إذا كان سكوتك يترتب عليه ضرر في الأمة ، أو فساد عام ، حين ذاك يجب أن تقول الحق ، لا تخش ما يصيبك : ﴿ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾(3) هذا ما وصل إليه الإسلام ، ليس في الإسلام أن تكتم أنفاس الناس ، ولا أن يلجم الناس بلجام ، فلا يتكلمون

(1) آل عمران : 72 .

(2) سبأ : 46 .

(3) لقمان : 17 .

إلا بإذن ، ولا يؤمنون إلا بتصريح ، كما قال فرعون لسحرته : ﴿ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾(1) » .

ويسجل الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه : (في فقه الأقليات المسلمة) في غير دار الإسلام أي في الدول غير المسلمة ؛ حيث يتساءل يوسف القرضاوي عن المراد بمصطلح (الأقلية) الذي نتحدث عنه هنا ؟ : « لقد راجت هذه الكلمة في عصرنا ، نتيجة لكثرة الهجرات وتقارب العالم بعضه من بعض ، ويراد بها: كل مجموعة بشرية في قطر من الأقطار ، تتميز عن أكثرية أهله في الدين ، أو المذهب أو العرق ، أو اللغة ، أو نحو ذلك ، من الأساسيات التي تتمايز بها المجموعات البشرية بعضها عن بعض .

ومثل ذلك: الأقليات المسلمة في المجتمعات المسيحية في الغرب ، أو الهندوسية في الهند ، أو البوذية في الصين ، فهي تخالف الأكثرية في العقيدة والدين ، ومثلها الأقليات المسيحية في مصر وسورية والعراق وغيرها. والأقليات اليهودية في المغرب وإيران وتركيا وغيرها ، ومثلها الأقليات الكاثوليكية في كثير من بلدان العالم .

ومن لوازم الأقلية : أنها تكون عادة ضعيفة أمام الأكثرية ، فالكثرة تنبئ عن القوة ، والقلة تنبئ عن الضعف .

هناك الأقليات المسلمة في أوروبا الشرقية والغربية ، بعضهم من أهل البلاد الأصليين ، مثل الجزء الأوروبي من تركيا ، وألبانيا والبوسنة والهرسك وكوسوفو ومقدونيا ، وهؤلاء لا يجوز اعتبارهم أقليات ، لأن بلادهم في الحقيقة بلاد إسلامية، ومثل مسلمي كرواتيا وصربيا والجبل الأسود ، وبلغاريا ، وغيرها ، فهم من أهل البلاد .

---

(1) الأعراف : 123 .

وهناك من دخل الإسلام حديثا من أهل أوروبا الغربية ، ومن انضم إليهم من المهاجرين من بلاد المغرب في فرنسا ، وفيها أكبر جالية إسلامية ، نحو خمسة ملايين ، بعضهم يحملون الجنسية الفرنسية ، وآخرون يقيمون إقامة مشروعة لها حقوقها .

ولقد بدأ المسلمون في أوروبا منذ مدة يشعرون بذاتيتهم ، وأدركتهم الصحوة الإسلامية العامة ، فطفقوا ينشئون المؤسسات المختلفة : دينية وثقافية واجتماعية واقتصادية للحفاظ على كيانهم : المساجد لصلواتهم ، والمدارس لتعليم أولادهم ، والكليات والجامعات لتخريج المتخصصين منهم . ومن المؤسسات التي تذكر للجالية المسلمة في أوروبا : اتحاد المنظمات الإسلامية ، والكلية الأوروبية للدراسات الإسلامية في فرنسا : اتحاد المنظمات الإسلامية ، والكلية الأوروبية للدراسات الإسلامية في فرنسا ، وقد خرجت عدة دفعات ، ومثلها في بريطانيا ، والمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث ، وقد عقد سبع دورات ، وأصدر عددا من الفتاوى والتوصيات المهمة ، حلت كثيرا من مشكلات المسلمين في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها .

وهناك المسلمون في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، ويقدر عددهم بأكثر من سبعة ملايين ، معظمهم من (المسلمين الأفارقة) الذين استلبوا من أوطانهم استلابا ، وسيقوا بسلاسل القهر إلى (الرق) وهم أحرار أبناء أحرار .

ولقد مرت الأقليات المسلمة في صلتها بالإسلام : فكرا وشعورا وسلوكا ، بمراحل متفاوتة ، وخصوصا فئات المهاجرين من أوطان الإسلام الأصلية .

في المرحلة الأولى كانت (ضياعا) بمعنى الكلمة ، لم يكن هناك وعي ، ولا حتى إحساس كاف بالانتماء الإسلامي ، أو الهوية الإسلامية .

بدأ ذلك من بعد الحرب العالمية الأولى ، حيث هزمت دولة الخلافة ، وانتصر الحلفاء ، وتألق العالم الغربي بحضارته ، وانسحب العالم الإسلامي ليدخل تحت سلطان الاستعمار ، الذي لم يكن قد دخل بلدانه من قبل » .

ومن أقوال وكتابات الدكتور يوسف القرضاوي: يختار الكاتب الإسلامى الكبير الأستاذ «أحمد بهجت» الكثير في عموده اليومى بالأهرام «صندوق الدنيا» الذي نختار معه جوانب منها ، مثلا : الحديث عن التاريخ الإسلامى المفترى عليه حيث جاء في سؤال خلاصته أن كثيرا ممن يتحدثون عن عظمة الإسلام وعدالته ، وما أرساه في الحياة من قيم ومفاهيم وتقاليد، يقفون به عند عصر الخلفاء الراشدين، ثم يسكتون عما بعد ذلك من العصور ، كأنما خلت هذه العصور من كل فضل ، أو إنجاز .

ولقد وجدنا من يقول : إن الإسلام لم يطبق إلا في عهد الخلفاء الراشدين ، فإذا حللنا عهد الراشدين نجد عهد أبي بكر عهدا قصيرا اشتغل فيه بمحاربة المرتدين ومانعى الزكاة ، وعهد عثمان عهد فتن داخلى انتهت بقتله ، وعهد على عهد حروب أهلية بين المسلمين بعضهم وبعض ، فلم يبق إلا عهد عمر، وعمر كان فلتة لا تتكرر ولا يمكن القياس عليها .

خلاصة هذا الكلام أن شريعة الإسلام فكرة مثالية لم تطبق في التاريخ ، ولا يمكن أن تطبق في الواقع .

وهذه هى المقولة التى يتصدى لها الشيخ يوسف القرضاوي بالنفى والتفنيد ، وهو يعترف بأن التاريخ الإسلامى ليس تاريخ ملائكة مطهرين ، أو أنبياء معصومين لا خطايا فيه ولا أخطاء، إنما هو تاريخ بشر يصيبون ويخطئون ، ويظلمون ويعدلون، شأنهم شأن البشر ، والحكم على التاريخ يكون بمجموع أحداثه ووقائعه ، وبكل فئاته وطبقاته ، وبجميع أقطاره وأمصاره ، وبالمقارنة بينه وبين غيره من تاريخ الأمم في عصره ، وهنا نجد تاريخنا يتفوق .. وهذا موضوع الكتاب .

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي عن أساس المجتمع في كتابه: (تاريخنا المفترى عليه) : « إن الشريعة الإسلامية كانت هى الأساس الدستوري والقانوني للمجتمع الإسلامى ، في جميع أقطار الدولة الإسلامية منذ العهد النبوي ، وعهد الخلفاء الراشدين وممن بعدهم من الأمويين والعباسيين والعثمانيين لقرون متطاولة ، إلى أن

دخل الاستعمار بلاد المسلمين وبدأ في تغيير أصول المجتمع ، ومضى يحاول تبديل هويته ، ومسخ شخصيته ليتحول من الأصالة إلى التبعية في الفكر والتشريع والتقاليد ، وبذلك يسهل تطويعه وتسخيره لما يراد منه .

نعم ، ظلت الشريعة طوال العصور الإسلامية وقبل دخول الاستعمار بلاد المسلمين مصدر التشريع ومصدر القضاء ومصدر التوجيه والتربية والتعليم للمجتمع كله ، ولم يكن لها مزاحم في ذلك ، وقد شهد المؤرخون الغربيون أنفسهم أن الفجوة بين المبادئ والقيم من ناحية ، والتطبيق والسلوك من ناحية أخرى، كانت للمسلمين أضيق بكثير منها عند أصحاب الأديان الأخرى .

كانت الجماهير المسلمة في أنحاء الدولة الإسلامية تلتزم بالإسلام مرجعا لها في عباداتها ومعاملاتها وسلوكها .

كان الناس يتزوجون ويطلقون ويرثون ويورثون وفق شريعة الإسلام ، وكان الناس يبيعون ويشترون ويؤجرون ويستأجرون ويمارسون سائر معاملاتهم وفق شريعة الإسلام ، وبهذا أصبحت حياتهم منضبطة بأحكام الإسلام .

هذا من ناحية الالتزام . أما من حيث التطبيق فالناس متفاوتون كما ذكر القرآن ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[1] .

وإذا كان حكام المسلمين يخرجون أحيانا على روح الشريعة أو نصوصها ، فإن الشعوب المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها كانت طوال التاريخ تحتكم لهذه الشريعة في كل شئونها .

وعن تأثير الحكام في المجتمع الإسلامي يرى د. يوسف القرضاوي أن أطغى الطغاة لم يكن ليجرؤ على رفض شريعة الله أو تحدي نصوصها ، ولو كان هو «الحجاج بن يوسف» المشهور بقسوته وجبروته .

(1) فاطر : 32 .

ويتحدث د. القرضاوي عن تأثير الحكام في الشعوب في ذلك الزمن البعيد فيقول : « أود أن أكون منصفا فأقول : إن الحكام في ذلك الزمن القديم لم يكن لهم من التأثير ما للحكام في زماننا .

فالحكومة في زمننا أصبح لها تأثير بالغ في المجتمع ، فهي التي غدت تملك زمام التعليم والتربية للمجتمع كله من الحضانة إلى الجامعة .

وهي التي تملك زمام الإعلام كله بالكلمة المكتوبة ، والكلمة المسموعة ، والكلمة المرئية ، وهي التي تنقل إليه الحديث والخبر والرأي ، وتلون هذا كما تشاء ، وهي التي تملك زمام الأمن والدفاع والقضاء والنيابة والشرطة ... وغيرها ، إلى غير ذلك مما أمسى في يد الدولة الحديثة ، حتى قال الفيلسوف الوضعي «برتراند راسل»: إن من مميزات عصرنا قدرة الدولة الهائلة على التأثير في الشعب .

أما الدولة - قديما - فما كانت تملك هذا كله ولا نصفه ولا عشره ، كان العلماء هم الذين يعلمون الناس في المساجد والمدارس ، ولم يكن أمر ذلك إلى الدولة ، وكان العلماء هم الذين يفتون الناس في شئون حياتهم ودينهم ، ولا علاقة للدولة بهم ، وكانت الدولة ممثلة في الإمام تعين القضاة ، ولكنهم كانوا يقضون بأحكامهم بمعزل عن الدولة ، وقد يحكمون عليها نفسها ، وكثيرا ما رأينا القضاة يحكمون على الأمراء والخلفاء فما يملكون إلا أن ينفذوا ، وكان القانون الوحيد الذي يرجع إليه القضاة هو الشريعة .

كانت الدولة مشغولة في أكثر الأحوال بالحرب أو السلم وتوفير الأمن ، وما يتعلق بالمحافظة على بقائها ، وكان الناس في مدنهم وقراهم يمارسون حياتهم في ضوء دينهم بكل حرية دون أن يسائلهم أحد ، أو يضيق عليهم » .

وعن قيمة الوقت في حياة الإنسان يقول الدكتور القرضاوي :

« ولما كان الإنسان مجموعة من الأوقات هي الماضي والحاضر والمستقبل ، فإن قتل الوقت لا يعني إلا قتل جزء من الإنسان . وإذا اعتبرنا أن الوقت جزء من

الحياة، فإن قتل الوقت وإهداره فيها لا يفيد هو قتل للحياة ، وسوف نلاحظ أن التقدم رهن بالوقت ، أو بتحديد أكثر هو رهن بالإحساس بالوقت .

هناك شعوب تعيش على أمجاد الماضي ، ولا حاضر لها ولا مستقبل ، وهناك شعوب تعيش أسيرة لأحلام الغد ، ولا حاضر لها ولا ماض ، ومأساة الوقت أنه شفاف كالهواء ويصعب الإمساك به أو تتبعه ، والفرق بين التقدم والتخلف هو الفرق بين الإحساس بالوقت وعدم الإحساس به .

وكل شيء يمكن تعويضه واسترجاعه إلا الوقت ، إن اليوم إذا مر وانقضى استحال على كل قوى الدنيا إعادته لا يبعث الأيام إلا الله بقدرته وحده سبحانه » .

وفي هذا السياق يحدثنا الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي عن قصة سيدنا يوسف وتفسيره لحلم الملك واستغلاله للوقت وتخطيطه فيه .

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾[1] .

وبلغة العصر قام يوسف عليه السلام بالتخطيط على امتداد 14 سنة لإنقاذ مصر وما حولها من المجاعة ، حتى انتهت الأزمة في العام الخامس عشر الهجري .

وغير ذلك ، مما سجله الأستاذ «أحمد بهجت» وغيره من أقوال وكتابات الدكتور يوسف القرضاوي ، مما يؤكد ممارسة هذا العالم الجليل للتجديد في التفكير الإسلامي .

* * *

(1) يوسف : 47 - 49 .

أبو الأعلى المودودي

مؤلفات مفكر الهند المعاصر «أبو الأعلى المودودي» المنتمي إلى القرن الخامس عشر الهجري لا تطمع في أن تعلمك شيئا جديدا في الإسلام، على الرغم من أنها تعلمنا الجديد والمفيد، بقدر ما تطمع في أن تقيم بينك وبينها جسورا من الحوار حول مبادئ ونظريات هذا الدين، فكرتها: أن تدعوك إلى تحريك عقلك في الجهات الأربع، ووسيلتها أن تنمي لديك فضيلة البحث والتفكير، وهدفها أن تحفزك إلى حمل أمانة وجودك كإنسان يدرك أمر دينه ودنياه. مثلا: نراه يتأمل القرآن، ويرسل البصر وراء آياته وتستوقفه تكرار أربع كلمات على امتدادها هي «الإله والرب والعبادة والدين»، فيؤلف حوله كتاب: (المصطلحات الأربعة في القرآن) مؤكدا أن هذه الكلمات الأربع هي أساس المصطلح القرآني وقوامه، والمحور الذي تدور حوله دعوته.

وهل يكفي مجرد تحديد هذه الكلمات الأربع؟ لا. إن المودودي يدعونا إلى تدبرها وتفهمها، ذاكرا أن الإنسان الذي لا يعرف ما الإله؟ وما معنى الرب. وما العبادة؟ وما تطلق عليه كلمة الدين؟ فمن المؤكد أنه لا يفهم ما يعنيه القرآن، ومن أجل معرفة صحيحة بهذه الكلمات يضع بين أيدينا أسلوبا للتفكير ومنهاجا للبحث أبرز خطواته التحليل اللغوي لها.

ونمضي إلى كتاب آخر هو: (شهادة الحق) يحدثنا فيه المودودي عن المراد بهذه الشهادة، ولعله يخاطبنا قائلا: أنتم مطالبون بهذه الشهادة.

وشهادة الحق – في رأيه – من الأهمية بحيث تعتبر أساس مكافأة الناس بأعمالهم ومما سبقهم عليها، لكن كيف يمكن تأدية هذه الشهادة؟ ويجيبنا المودودي

قائلا : « بطرق قولية كأن نبين للناس الحق الذي بلغنا به ، نبينه لهم باللسان والقلم ، وبما يمكن استخدامه من وسائل الدعوة والتلقين والتبليغ التي عرفها إنسان القرن العشرين الميلادي ، وإلى جانب هذه الطرق القولية هناك أيضا الطرق العلمية في الشهادة بأن تكون حياتنا العملية مرآة للأصول والمبادئ » .

ويطالب في كتابه : (تدوين الدستور الإسلامي) بتدوين دستورنا الإسلامي ومصادره الأربعة وهي : القرآن ، والسنة ، وأعمال الخلفاء والتابعين ، ومذاهب المجتهدين المجددين في الإسلام .

والسؤال الآن : إذا كانت هذه المصادر مدونة في الكتب ، فما المانع من كتابة هذا الدستور ؟ ويجيب : « لقد تعذر ذلك للأسباب الأربعة :

غرابة المصطلحات ، وغرابة ترتيب الكتب الفقهية القديمة ، وإفساد النظام التعليمي في الأمة الإسلامية ، وادعاء الاجتهاد مع الجهل .

وبتأمل المسائل الأساسية التي يهتم بها الدستور ومنها : من الذي يحكم ؟

وما حدود تصرف الدولة ؟ وما حدود تصرف السلطات ؟ وما غاية الدولة؟

وهل يرشدنا الإسلام إلى هذه المسائل ؟ وإذا كان يرشدنا فهل إرشاده من باب التوجيه ، أم أنه من باب الأحكام القاطعة ؟ » .

وفي إطار انهيار وازدهار الأمة الإسلامية يستوقفنا كتاباه : (الإسلام اليوم) و(واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم) ونراه في الكتاب الأول يعتني بالمراحل التي اجتازتها الأمة الإسلامية وهي «المرحلة المثالية في تاريخها» و«مرحلة الملكية» و«مرحلة الاستعباد» و«مرحلة الاستقلال» بينما نراه في كتابه الثاني يعتني بالأسباب التي أدت إلى هذا الواقع الإسلامي ، فيراها : « من أحوالنا الدينية والخلقية والفكرية والعلمية ، ومن اتباعنا لأسس ثقافة الغرب وعلى الأخص نظريات «هيجل وداروين وماركس»، ومن تأثر تعليمنا واقتصادنا واجتماعنا وسياستنا بالغرب » .

ومن هنا يمكن القول : بأنه إذا كان كتاب : (الإسلام اليوم) تأريخا لما وصل إليه الإسلام فإن كتاب : (واقع المسلمين) يعتبر تقريرا لما وصل إليه الإسلام .

وإذا كنا قد عرفنا أسباب الانهيار والنهوض ، فهل تستطيع الأمة الإسلامية أن تقود العالم ؟ ويجيبنا المودودي : « إذا خرجت الحياة أمة جديدة في كل شيء » .

وفي كتاب : (الحكومة الإسلامية) يعلن المودودي أن الإسلام جاء ليضع حدا لمسألة أن الدين ملحق للحياة ، وقال : « إن الدين هو الحياة بأسرها ، وقد وضح هذا في مبادئ الإسلام ، حين بحثت العلاقة بين الله والإنسان ، وبين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان وجميع الكائنات ». ويذهب المودودي إلى أن طلب الحكومة الإسلامية والجهاد في سبيل تكوينها وطلب السلطة لإقامة الدين وتنفيذ الشريعة وتطبيق حدود الله ليس أمرا مشروعا فحسب- من قبل الإسلام - وإنما هو مطلوب أيضا .

وما رأي الإسلام في هذه المفاهيم السياسية ومنها حقوق الإنسان ، والعدالة الاجتماعية ؟ في إجابته على هذا السؤال نرى المودودي يتعجب من أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي لا يزال يبحث عن حقوقه . فكل المخلوقات أعطتها الفطرة حقوقها تلقائيا ، وقد فطن القرآن إلى ذلك حيث أعلن حقوق الإنسان في كل آياته ولا عدالة اجتماعية حقيقية صحيحة إلا في الإسلام ، فعدالة الاشتراكية العلمية وهمية ، وعدالة الرأسمالية الديمقراطية مقيدة .

* * *

أبو الحسن الندوي

العلامة الكبير المعاصر أبو الحسن الندوي ، أحد مجددي الإسلام في القرن الخامس عشر للهجرة ، وواحد من المفكرين الإسلاميين في شبه القارة الهندية الذين أخذوا على عاتقهم مهمة التنوير الإسلامي ، وجسدوا عظمة قيم ومبادئ العقيدة الإسلامية ، وجلوا الكثير من صفحات التاريخ الإسلامي ، وجعلوا لهذا الدين الحنيف صوتا مجلجلا في شبه القارة الهندية . وفي مقدمتهم «أبو الكلام آزاد» و«أبو الأعلى المودودي» و«وحيد الدين خان» وبالطبع من قبلهم جميعا : شاعر الهند والباكستان الفيلسوف «محمد إقبال» .

ولا شك أن جهود أبي الحسن الندوي كانت بارزة بين هؤلاء المفكرين ، سواء كانت هذه الجهود في كتبه ، أو منتشرة في أحاديثه ، أو حتى في ندوته التي ينتسب إليها كأمين لدارها بالهند ، هذه الجهود حدت بالكثيرين أن ينظروا إلى الإسلام نظرة عدل وإنصاف ، وأنه دين ودنيا ، فكر وعمل ، نظرية وتطبيق ، وأن يتأملوا أحكام هذا الدين الحنيف ، عندئذ سيجدونه خليقا بأن يكون آخر الأديان ، ونبيه الكريم هو خاتم الأنبياء والمرسلين .

في حديثه إلى الغرب ، وما الذي تتطلبه ماديته من روحانية الشرق ، يقول في كتاب حديثه مع الغرب : « إن شقاء الإنسانية في انفصال الغرب عن الشرق ، وفي انفصال العلم عن الإيمان ، وفي انفصال المؤسسات عن الأخلاق ، هذا الانفصال الكبير الذي جر على مدنيتنا شقاء طويلا . إن الإيمان تقدم وتضخم في الشرق قديما ، والعلم تقدم وتضخم في الغرب حديثا ، والإيمان لا يزال ينتظر مرافقة العلم ، والعلم لا يزال ينتظر مرافقة الإيمان ، والإنسانية تنتظر التقاءهما وتعاونهما في بناء

المجتمع الجديد ، وليست ثروة الشرق أيها السادة الغربيون في هذا النفط الذي تنقلونه إلى عواصمكم لتتحرك به هذه المدنية بطائراتها وسياراتها . إن ثروة الشرق وهديته ذلك الإيمان الذي نبع فأضفى الشرق ، وأخذتم منه نصيبا ، ثم نبع وفاض في ركن بعيد من جزيرة العرب حين فاض على العالم وأروى الإنسانية » .

(وفي الطريق إلى المدينة المنورة) وهو عنوان كتاب للعلامة أبي الحسن الندوي نجده ينطوي على هذه الكلمة : «رحم الله الشاعر - يقصد محمد إقبال - الذي يقول: لقد عزمت على أن أجهز جيشا جديدا من بلاد الحب والعاطفة ، فقد بدت في مركز الإسلام - يقصد المدينة المنورة ، طلائع ثورة يقودها العقل الفلسفي » .

ونمضي مع المؤلف في صفحات كتابه ، لنرى بعينه طلائع هذه الثورة في بلاد كانت مصدر الإيمان والحنان والعاطفة ، وفي ربوعها تمثلت أروع رواياته من روايات الوفاء والغذاء وقوة العاطفة . ولم تزل شعوب العالم الإسلامي تستمد من تاريخ المدينة المنورة هذا الحب الطاهر ، وهذه العاطفة الجياشة ، وتشعل بها مجامر قلوبها التي تتعرض حينا بعد حين للانطفاء .

ويخاطب المسلمين في كتابه : (إلى الإسلام من جديد) فيقول : « إن آباءكم قد انتشروا في عواصم الجاهلية الأولى ومراكزها الكبرى يقولون : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد ، إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » إلى أن يقول : « والعالم ينتظر منذ زمان ، رسل المسلمين ينتشرون في عواصم الجاهلية الثانية يهتفون : الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة والبطن إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق عالم التنافس والأثرة والجشع المادي إلى سعة عالم القناعة ، والإيثار والزهد ، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية ، إلى عدل الإسلام » .

وعن حيرة الشباب وقلقه ، يقول العلامة أبو الحسن الندوي في كتابه : (نحو التربية الإسلامية الحرة) : « إنني أعتقد أن أول خطوة نخطوها نحو إنقاذ الشباب من هذه الحيرة المتردية ، هي توحيد نظم التعليم . ولستم في حاجة إلى شرح هذه النقطة أن المعسكر التعليمي موزع قسمين : معسكر ديني ، ومعسكر لا ديني أو علماني ، وهذه الازدواجية في التعليم هي السبب الأكبر في خلق هذه الحيرة التي يعيشها الشباب ، فأول خطوة نخطوها إلى الغاية الصحيحة لإزالة هذه الحيرة ، هي: تنسيق غايات التعليم ومولد التعليم ، فهنالك تناقض في المواد الدراسية ، فالذي يبنيه تعليم ، يهدمه آخر .. » ويرى أن هذا التنسيق يجعل التعليم وحدة لا تتجزأ أمام الشباب .

وإلى جانب هذه الكتب وغيرها ، تلك التى أنارت الطريق أمام المسلمين في الهند ، نجد ندوته الأسبوعية التي خرجت منها العديد من الأفكار الجديدة التي تواكب الحياة في حركتها المستمرة، التى هى من صميم قيم ومبادئ الإسلام، في حين أن الهند تتنازعها الكثير من الديانات والتيارات ، والتداخلات الأجنبية خاصة بقايا الاستعمار الإنجليزي في الهند ، وغيرها من مشكلات تجعل المسلم يحتاط ، وعليه أن يحسن التصرف . ولن يكون ذلك إلا بتجديد فكره ليساير ما يطرأ على المجتمع من متغيرات ، وفي الوقت نفسه يحافظ على المبادئ الإسلامية الأولى .

ولهذا وغيره من أسباب .. اعتبر الداعية الحسن الندوي من المجددين في الإسلام ، خاصة في شبه القارة الهندية .

* * *

وحيد الدين خان

قبل أن يصدر كتابه الخالد : (الإسلام يتحدى) يبدو أن مفكرنا الهندي المعاصر «وحيد الدين خان» أحد مجددي القرن الخامس عشر الهجري ، فقد كان مثالا لموقف التحدي من مجتمعه الذي يتكلم بغير العربية ، ويدين بغير الإسلام ؛ حيث كان ينشر الفكر الإسلامي ، متحديا في نفس الوقت هذه التيارات الضارة ، التي وجدت مراكز لها في شبه القارة الهندية إبان الاستعمار الإنجليزي وبعده ، ولا شك أن ثبات وحيد الدين خاف على موقفه، هو إيمان بالإسلام كدين ودنيا، إلى جانب أنه أصالة ووعي.

مثلا : هو لا يكتفي بتحديد المشكلة ، وإنما أيضا يحدد سبيل مواجهتها حيث يقول : « إن المشكلات التي يواجهها الإسلام في عصرنا الحديث ، منها ما هو علمي، يوجه إليه بلغة العلم ومصطلحاته ، ولذلك كان لزاما علينا أن نضع إجاباتنا في مواجهة هذه الحملات المسعورة بنفس المصطلحات العقلية والعلمية التي يستخدمها المعارضون للدين الإسلامي » .

وهو كمفكر يتجاوز تحديد المشكلة وسبيل مواجهتها إلى البناء ، حيث يقول : «إن الميدان الثاني لنشاطي هو ما نسميه بميدان بناء الأمة الإسلامية وتعميرها ، والعمل على نهضتها ، وعلينا في هذا المجال أن نكشف الملل ، ونمحص الأسباب السياسية والاجتماعية التي أدت إلى سوء أحوال المسلمين ، ثم وضع خريطة للمستقبل بعد الوقوف على أسباب النكسة التي أصابتنا ، وتقوية الشعور القومي لدى المسلمين » .

وهنا لا نرى وحيد الدين خان مفكرا مستقبليا فحسب ، وإنما أيضا مفكرا صاحب دعوة ورسالة ربما تتضح في عبارة أخرى حيث يقول : « .. نحن نصبو إلى بعث الأحلام ، التي رآها أسلافنا خلال كفاحهم وتحقيقها ، لإعلاء شأن الأمة الإسلامية ، وهي الأحلام التي لم تتحقق لسبب أو لآخر .. » .

فالرجل إذا صاحب دعوة يريد إبلاغها إلى ضمير الأمة المسلمة بلاغا يحركها نحو أهدافها ، ويوحدها أمام الأخطار على حد تعبير الدكتور «عبد الصبور شاهين» أحد أصحاب الفضل في تعريفنا على هذا المفكر حين ترجم أعماله .

وإذا نحن مضينا مع تفكير وحيد الدين خان في كتبه نجده في كتاب : (الإسلام يتحدى) يهدف إلى إثبات أحقية الدين أمام الفكر المادي الجديد . وهذا الإثبات يتخذ لنفسه أسلوبين : أولهما أن نستدل له على أن الدين الإسلامي ليس ماديا ، بل هو فوق المادة ، وبناء على ذلك ليس للعلوم المادية أن تعترض طريقه ، وقد أصبح هذا الاستدلال الذي سجله وحيد الدين خان في غاية القوة بعد اعتراف علماء هذا القرن أخيرا – بأن العلوم المادية لا تعطي إلا علما جزئيا عن الحقائق الكونية .

والطريقة الثانية لإثبات أحقية الدين ، فهي في اتباع نفس الطرق العلمية التي يتبعها العلماء الملحدون لإثبات معتقداتهم . فهو يرى أنه لابد من اتباع نفس أساليب الاستدلال التي يستغلها الملحدون لإثبات حقائق الدين .

ويواصل في كتابه الثاني : (الإسلام والعصر الحديث) مناقشة لقضية مواجهة الإسلام للمشكلات المعاصرة بمنظور مختلف عن منظور الكتاب الأول حيث يرد على أدعياء العصر الحديث بأن الإسلام قد فقد مبررات بقائه ، ليس من الناحية العملية بل من الناحية النظرية، حيث أبطلت النهضة العلمية الحديثة الأسس التي تركها الإسلام. ولذلك يدعي المتحدثون باسم العصر الحديث بأن الإسلام يتمتع الآن بقيمة تاريخية تقليدية ، بدلا من أن يتمتع بقيمة حقيقية وعملية. ويدحض

وحيد الدين خان هذا الادعاء ، ويثبت بطلانه على صفحات كتاب : (الإسلام والعصر الحديث) .

وفي كتابه : (حكمة الدين) يرى أن الدين يتألف من جزأين رئيسيين : أحدهما جانبه النفسي ، وثانيهما جانبه الخارجي أو ما اصطلح عليه العلماء حيث قالوا أعمال روحية وأخرى بدنية ، ويبحث في كتابه عن العلاقات بين الجانبين التوأمين ، ويقدم التفسير المتزن للدين ، الذي يحتفظ للإسلام بجوهره وأصالته .

وفي كتاب : (المسلمون بين الماضي والحاضر والمستقبل) نراه يؤكد على ثلاثة موضوعات أولها : بمثابة المسح التاريخي لظهور الإسلام في الماضي، وثانيها : يتناول بالتحليل الحركات الإسلامية التي قامت في العصور الأخيرة ، وثالثها : التغيرات التي طرأت على العصر الحاضر ، فجعلت من القرن العشرين قرن الإسلام ، والتي ربما تمكننا لو أحسنا استخدامها لجعل هذا القرن قرن النهضة الإسلامية .

وهكذا ، نرى المفكر الهندي المسلم وحيد الدين خان لا يكتفي بالدفاع عن الإسلام ضد أباطيل خصومه ممن وجدوا في كل زمان ومكان منذ ظهور هذا الدين الحنيف ، بل إنه يكافح وينافح من أجل قضية إثبات أن الإسلام هو دين البناء الحق، حيث يضع للمسلم منهاجا يجعله يعمل لدينه وكأنه يموت غدا ، كما يعمل لدنياه ، وكأنه يعيش أبدا ، وفي هذا يختلف هذا الدين عن غيره من الأديان الأخرى التي تقوم معظم تعاليمها على العمل من أجل الآخرة فحسب ، بما تقرره من الدعوى إلى اتباع هذه التعاليم .

وإلى جانب إثبات المفكر وحيد الدين خان بأن الإسلام دين بناء ، فهو يؤكد عظمة هذا الدين في إمكانية تحديه لما يوجه إليه من ادعاءات ، وذلك في إطار الدفاع عنه ضد أباطيل خصومه . ففي ثنايا هذا الدفاع نكتشف قوة هذا الدين في التحدي

لما يدعيه هؤلاء الخصوم ، مؤكدا أنه يواكب الحياة الإنسانية في تطورها المستمر بحيث لا يتخلف عنها ، وإلا لما قيل عن هذا الدين بأنه دين وحياة .

ولهذا ، يمكن القول بأن المفكر الهندي المسلم وحيد الدين خان وما قام به من اجتهادات تعتبر إضافة للفكر الإسلامي ، ومن بعد محاولة للتجديد في هذا التفكير.

❊ ❊ ❊

الدكتور أحمد عمر هاشم

الدكتور أحمد عمر هاشم ، من مجددي القرن الخامس عشر للهجرة الأحياء ، فهو على هذا النحو ، والدكتور «يوسف القرضاوي» ... وغيرهما في العالم الإسلامي من الأحياء الذين يثرون الفكر الإسلامي بأفكارهم المستنيرة، وفتاواهم الصحيحة ، المستمدة من القرآن الكريم ، والسنة الشريفة ، مع إعمال للعقل فيما يفيد ، ويصلح لهذا العصر الذي يعيشان فيه ، والذي يتسم بألوان شتى من المعضلات والتحديات، والمشكلات التي طرأت مع تغير الحياة الدائمة التغير ، والتي تواجه المسلم المعاصر ، والتي تتطلب مواجهة من علماء أفذاذ في طول قامة هذين المجددين الجليلين ، أطال الله في عمرهما .

وإذا كان قد سبق الحديث عن الدكتور القرضاوي ، فإن الصفحات التالية ، ستهتم بمجددنا الدكتور «أحمد عمر هاشم» .. فتبدأ بالحديث عن شخصيته في جانب من السيرة الذاتية ، حيث نهتم أولا وأخيرا بالأعمال كمنهج متبع في بقية تناولنا لشخصيات المجددين السابقين .

وفي هذا السياق ، يمكن البدء بما شغل من وظائف ومواقع ومناصب ، وهل كانت ذات فائدة لدوره في الدعوة إلى تعاليم الإسلام الصحيح ؟ وما قدم - خلال هذا الدور - بعلمه الغزير ، وتفكيره المستنير للإسلام من اجتهادات قامت على جهد صادق وأمين ، ليس على المستوى المحلي بمصر فحسب ، وإنما على المستوى القومي في عالمنا العربي ، وعلى المستوى العالمي حيث أبناء الأمة الإسلامية على امتداد القارات ، وما يوجد بها من مسلمين .

ولعلنا نبدأ بتدرجه العلمي الجامعي ؛ حيث نال الإجازة العالية من الأزهر الشريف ، ثم درجة الماجستير في الحديث النبوي وعلومه ، ثم الدكتوراه من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر ، ليبدأ تعيينه من معيد بقسم الحديث بكلية أصول الدين ، إلى مدرس مساعد ، إلى مدرس ، إلى أستاذ مساعد ، إلى أستاذ ، إلى رئيس قسم الحديث وعلومه بكلية أصول الدين ، ثم عميدا لهذه الكلية ، ثم نائبا لرئيس جامعة الأزهر مرتين ، ثم إلى رئيس لجامعة الأزهر ... وهذا التدرج الوظيفي في هيئة التدريس الجامعي ، جاء طبيعيا ؛ حيث قام على ما يتسم به من كفاءة علمية ، وفكر متميز ، واستعداد لخدمة الإسلام في أي من هذه المواقع التي شغلها . وكيف لا تكون هذه الكفاءة العلمية والاستنارة الفكرية سببا ومبررا ؟ وهذه القائمة الطويلة - التي أمامي الآن - من مؤلفاته التي تتجاوز الثمانين عنوانا ما بين : تأليف، وتحقيق ، وشرح ، ودراسة ، وإبداع شعري ، يتضمنه أكثر من ديوان شعر . هذا إلى جانب دراساته الضافية في جوانب مهمة من الفكر الإسلامي ، وما تشتمل عليه من قضايا ، وتقديمه لعدد من أعلام هذا الفكر الإسلامي المستنير والمؤثر ، يتقدمهم الشيخان الجليلان : «مصطفى المراغي» ، و«محمود شلتوت» ، وأيضا «محمد متولي الشعراوي» .. وغيرهم ، كأمثلة لما يكون عليه السلف الصالح من التفكير الحر المستنير في إطار خدمة الإسلام .

وإلى جانب جهوده التأليفية العظيمة في مجالات الفكر الإسلامي والدعوة والفقه ، التي تكفي وتزيد لتقديم واحد من المجددين الكبار ، هناك أيضا حضوره الدائم والمفيد كمشارك في الزيارات والمؤتمرات والندوات العلمية والفكرية ، ليس في مصر وحدها ، وإنما على امتداد كل أقطار العالم العربي والبلاد الأجنبية ، كصاحب دعوة إلى هذه الأماكن ، وحاملا لرسالة الإسلام في قيمه ومبادئه .. فنراه في هذه الزيارات يلبي رسالة العلم في بعض الأقطار العربية الشقيقة ، ومنها

التدريس في جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان ، وكلية الشريعة بمكة المكرمة بالسعودية .

وفي هذه الندوات والمؤتمرات ، نراه يشارك في فعاليات علمية وفكرية في كل من : تلمسان بالجزائر ، وكراتشي ، وإسلام أباد في باكستان ، وكوالالمبور ، ودبي في الإمارات العربية المتحدة ، والرباط بالمغرب ، والكويت بدولة الكويت ، وألمانيا الاتحادية ، والأردن ، والعراق ، والسعودية .. كذلك كان يدعى لإلقاء محاضرات حول قضايا الفكر الإسلامي في أمريكا ، وذلك بدعوة من الكونجرس الأمريكي ، أو حضور مؤتمرات في كل من : روما بإيطاليا ، وباريس في فرنسا ، والبوسنة والهرسك ... وغيرها من الأمم العربية والإسلامية والأجنبية .

ولعل هذه الجهود جميعها القائمة على علم وفضل ، يتمتع بهما هذا المجدد الجليل، أهلته لعضوية العديد من المجامع والاتحادات ، والتي منها : عضوية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، واتحاد الكتاب بمصر ، ومجلس البحوث الإسلامية ، ومجلس الشعب ، والمجلس الأعلى للصحافة ، والمجلس الأعلى للثقافة، والمجلس الأعلى للجامعات ، والمجالس القومية المتخصصة . وطبيعي أن يكون لهذا المجدد نصيب من الأوسمة والجوائز ، فنراه ينال أعلى الجوائز المصرية الممثلة في الجائزة التقديرية ، وأكبر الأوسمة ، في مقدمتها : وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى .. تقديرا لعلمه وفضله ، وخدمته للإسلام باجتهاداته وجهوده .

وفي مجال إسهاماته التجديدية في الفكر الإسلامي ، نراه وقد عني مبكرا بدراسة الحديث النبوي الشريف ، دراسة واعية مستفيضة ، وذلك في مؤلفات كثيرة توجها برسائله العلمية التي قدمها لجامعة الأزهر ، وفيها جميعا ندرك مدى إخلاصه وأمانته في الدفاع عن الحديث النبوي ، بمناهج عقلانية تعتمد على أحدث المناهج العلمية ، في كل خطواته ، إلى جانب ما يكنه من حب وتقدير كمسلم لصاحب هذه

الأحاديث النبوية الشريفة ﷺ ، فيستهل أحد كتبه العديدة وعنوانه : (منهج الدفاع عن الحديث النبوي) بقوله : « يسعدني ويشرفني أن أكون أحد المجندين والخادمين لسنة رسولنا صلوات الله وسلامه عليه ، وأي شرف أعلى وأغلى من هذا الشرف ، فللسنة النبوية مكانتها في الإسلام التي لا تخفى على أحد من المسلمين ، ولها أهميتها في الدين ، بحيث لا يمكن الوقوف على تفاصيل العقيدة والتشريع والسلوك ، إلا عن طريقها بعد القرآن الكريم . ومن هذا ، تعرضت لسهام أعداء الإسلام من المبشرين والمستشرقين » .

ولذلك ، نراه في كل ما كتب في هذا الكتاب أو غيره من مؤلفات ، يواجه خصوم هذه السنة الشريفة ، الذين يحاولون النيل منها ، والكيد لها ، والمكر برجالها ، محاولا تقديم صورة لجهود العلماء في حفظ السنة ، ومواجهة المستشرقين الذين أثاروا حولها بعض الشبهات . كما كان يدافع عن حجتها ، ويبرز مقاومة الأئمة والعلماء لحركة الوضع والوضاعين ، ثم يذكر بعض أسباب عدم الاحتجاج بها في النحو والصرف ، مدللا على ذلك بأنه ليس لقصور روايتها ، وإنما لقصور لدى النحاة واللغويين أنفسهم ، كما قام بالرد على الشبهات الحديثة لبعض خصوم الإسلام وأعدائه . وهو ما سوف نتبين البعض منه في الصفحات التالية :

على سبيل المثال : يذكر الدكتور «أحمد عمر هاشم» من افتراءات أعداء الإسلام : مبشرين ومستشرقين ما قاله المبشر الأمريكي «جب» من : « أن الإسلام مبني على الأحاديث النبوية أكثر مما هو مبني على القرآن الكريم ، ولكننا إذا حذفنا الأحاديث الكاذبة ، لم يبق من الإسلام شيء ، وصار أشبه بصبيرة «طومسون» وطومسون هذا رجل أمريكي جاء إلى لبنان ، فقدمت له صبيرة ، فحاول أن ينقيها من البذر ، فلما نقى منها كل بذورها لم يبق في يده منها شيء » .

ويرد على هذا الافتراء بقوله : « هي محاولة عدوانية ظالمة للتجني على السنة النبوية الشريفة التي جاءت مفسرة للقرآن الكريم ، ومفصلة لمجمله ، وموضحة لمبهمه ، ومبينة لأحكامه . ونلاحظ أن هذا المبشر الأمريكي يريد أن يصور السنة وكأنها مجموعة من الأخبار التي إذا نقيت لم يبق منها شيء . وفي هذا افتراء متبجح ، ومحاولة إجرامية للنيل من السنة النبوية التي ثبتت بأدق طرق الرواية والنقل الصحيح ، ولقد كان الإسناد الصحيح المتصل خصوصية لهذه الأمة ، وليس لغيرها من الأمم ، ولقد نوه القرآن الكريم بذكر الإسناد في قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾[1] » .

ويذكر الدكتور «أحمد عمر هاشم» أن همم أئمة الحديث وحفاظه كانت عالية ، وعنايتهم بانتقاء الأحاديث الصحيحة فائقة . فهذا هو الإمام أحمد بن حنبل يقول : «انتقيت المسند من سبعمائة وخمسين ألف حديث» .

ولدقتهم في تمييز الصحيح من غيره : « كان بعض أئمة الحديث يحفظ الصحيح من الأحاديث ، كما يحفظ غير الصحيح ، حتى لا يلتبس على الناس هذا بذاك . وحتى لا يأتي من يخلط بينهما ، أو يحاول تلبيس الأمور ، فميزوا بذلك الصحيح من السقيم . فقد كان الإمام البخاري يحفظ مائة ألف حديث صحيح ، ومائتي ألف حديث غير صحيح ، وصنف «الإمام مسلم» صحيحه من ثلثمائة ألف حديث مسموعة ، وكتب الإمام «أبو داود» خمسمائة ألف حديث ، انتخب منها ما ضمنه كتاب «السنن» . وهكذا ، بهذه الدقة الفائقة والجهود المخلصة ، قيض الله تعالى لحفظ السنة الشريفة رجالا أمناء ، وحفاظا ثقات ، أفنوا أعمارهم في جمع السنة الصحيحة وتدوينها ، وحفظها من لدن صدورها من فم النبي الشريف صلوات الله

(1) الأحقاف : 4 .

وسلامه عليه ، إلى أن وصلت إلينا نقية صحيحة ، خالصة بيضاء ، في كتب الصحاح التي أشرقت على دنيا الناس ، فكان منها صحيحا البخاري ومسلم اللذان تلقتهما الأمة الإسلامية بالقبول .

وغير ذلك من الكتب الصحيحة والسنن والمسانيد والمعاجم ، والمستدركات والمستخرجات ، وما إلى ذلك ، مما هو مدون في كتب السنة الصحيحة . فادعاء أعداء الإسلام من مبشرين ومستشرقين ، وغيرهم من أبواق الكفر والإلحاد ادعاء كاذب ، وعدوان ظالم ، وتجن على الإسلام وعلى مصادره الأصلية ، التي تمثلت في كتاب الله تعالى ، وفي سنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه » .

ومن الافتراءات كذلك قولهم : وبينما كان محمد يعظ ، كان المؤمنون يدونون كلماته على عجل .

ويرد الدكتور «أحمد عمر هاشم» على ذلك بأنهم : « يريدون - أي المبشرون والمستشرقون - أن يثيروا حول السنة : أنها لم تدون تدوينا دقيقا ، يتسم بالروية والأناة والتثبت ، وهي شبهة لا أساس لها من الصحة ؛ فما عرفت البشرية على مر أدوار الحياة تاريخا من التواريخ ، أو علما من العلوم نقل بأدق وأعظم مما نقلت به السنة الشريفة . وما كان المؤمنون يدونون أحاديث الرسول ﷺ ، وكلماته على عجل، كما يدعي أعداء الإسلام ، وإنما كانوا في غاية التثبت والحيطة ، يتثبتون من الراوي والمروي ، أو السند والمتن تثبيتا قويا ، فما اطمأنوا إليه قبلوه ، وما لم يطمئنوا إليه طلبوا عليه شاهدا ، وما لم تقم البينة على صدقه ردوه ، وكان تثبتهم قائما على ميزان النقد العلمي الصحيح ، ومنع الصحابة الرواة أن يحدثوا بما يعلو على فهم العامة ، لأن في هذا مدعاة لتكذيبهم للمحدث فيما لا يفهمونه ، ومدعاة للخطأ والشك في الدين ، فامتنعوا عن ذلك خشية أن يستغل أصحاب الأهواء ظاهر النصوص لصالح بدعهم وأهوائهم .

كذلك .. لما كان الصحابة متفاوتين في العلم ، فلم يكن عند الجميع ما قاله الرسول ﷺ ، فقد بدأت الرحلات العلمية ، فقام الصحابة والتابعون بالرحلات العلمية إلى كثير من البلاد ، حتى تميز البعض بكثرة الرحلات والانتساب إلى أكثر من بلد ، وكانت الرحلة سبيلا إلى طلب الحديث وضبطه والتثبت منه .

وهكذا ، كانوا يتثبتون في أخذ الحديث وروايته وضبطه وتدوينه ، بموازين النقد العلمي النزيه ، تلقوه خلفا عن سلف ، حتى وصل إلينا في هذه الدواوين المعتمدة ، والجوامع الواسعة » .

وفي إطار الدفاع عن حجية السنة : يذكر الدكتور أحمد عمر هاشم أن بعض أصحاب الآراء الجامحة - من الفرق والطوائف - ذهبوا إلى إنكار حجية السنة جملة . مستندين في ذلك إلى فهمهم السقيم في مثل قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[2] ، وأصل هذا الرأي الفاسد لأصحاب هذه الآراء الجامحة هم : الزنادقة ، وطائفة من غلاة الرافضة ، ذهبوا إلى إنكار الاحتجاج بالسنة ، والاقتصار على القرآن ، ونسبوا إلى الرسول ﷺ أنه قال : «**ما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافقه فأنا قلته ، وما خالف فلم أقله**» ، كما استدلوا على عدم حجيتها أيضا بنهي الرسول ﷺ عن كتابة السنة ، وأمره بمحو ما كتب منها .

والإجابة على هذه الشبهات تتلخص فيما يلي :

1 - قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[3] ، والمراد هنا - والله أعلم - : أن الكتاب يبين أمور الدين بالنص الذي ورد فيه ، أو بالإحالة على

(1) النحل : 89 .
(2) الأنعام : 38 .
(3) النحل : 89 .

السنة التي تولت بيانه ، وإلا فلو لم يكن الأمر كذلك لتناقضت الآية مع قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[1] .

2 – وأما قوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾[2] ، فالكتاب هو اللوح المحفوظ بدليل السياق : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[3] ، وعلى تقدير أنه القرآن ، فالمعنى : أنه يحتوي على كل أمور الدين ، إما بالنص الصريح ، وإما ببيان السنة له .

3 – وأما الحديث الذي نسبوه إلى النبي ﷺ ، وزعموا – حسب ادعائهم – أنه يفيد ضرورة عرض السنة على الكتاب ، فقد قال فيه الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : « ما روى هذا أحد يثبت حديثه في شيء صغر ولا كبر » .

وذكر أئمة الحديث : أنه موضوع ، وضعته الزنادقة ؛ فقد قال «عبد الرحمن ابن مهدي» : الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث ، وهذه الألفاظ لا تصح عنه ﷺ، عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه ، وقد عارض هذا الحديث قوم من أهل العلم ، وقالوا : نعرض هذا الحديث على كتاب الله قبل كل شيء ، ونعتمد على ذلك. قالوا : فلما عرضناه على كتاب الله وجدناه مخالفا لكتاب الله ، لأنا لم نجد في كتاب الله أنه لا يقبل من حديث رسول الله ﷺ ما وافق كتاب الله ، بل وجدنا كتاب الله ، يطلق التأسي به ، والأمر بطاعته ، ويحذر من المخالفة عن أمره جملة .

4 – وأما نهي الرسول ﷺ عن تدوين السنة ، فلا يدل على عدم حجيتها ؛ لأن المصلحة يومئذ كانت تقضي بتضافر كتاب الصحابة ، وهم قلة على جمع القرآن

(1) النحل : 44 .
(2) الأنعام : 38 .
(3) الأنعام : 38 .

الكريم وتدوينه وحفظه ؛ خشية أن يلتبس بغيره على البعض ، فنهاهم عن تدوين السنة ؛ حتى لا يكون تدوينها شاغلا عن القرآن الكريم ، أو أن النهي كان بالنسبة لمن يوثق بحفظه حفظا جيدا .

وأخيرا : فكيف يترك الاحتجاج بالسنة ، اقتصارا على القرآن ؟ ولا سبيل إلى فهم القرآن إلا عن طريق السنة الصحيحة التي يعلم بها المفسر أسباب النزول ، والظروف والمناسبات والوقائع الخاصة التي نزلت فيها الآيات الكريمة ، ولا سبيل إلى معرفة ذلك إلا عن طريق السنة الصحيحة .

وإذا كانت هذه جوانب من السيرة الذاتية للدكتور أحمد عمر هاشم ، وجوانب أخرى سريعة من إسهاماته التجديدية في خدمة الإسلام كأمثلة من جهوده المتعددة. فماذا عن رأي الآخرين في علمه وفضله وتجديده ؟

أمامي عدد من الكتب ، وملف من الكتابات ، كلها تهتم بالكتابة عن هذا المجدد الجليل ، وتشيد بفضله وعلمه وجهوده في خدمة الإسلام ، إلا أنني أختار منها مجلدين اقتصر حديثهما عنه ، أما الأول فعنوانه : «الإمام الدكتور أحمد عمر هاشم محدثا ومجددا » ، يقول مؤلفه الدكتور : «عثمان محمد عثمان الغزالي» : «الأفكار نوعان : نوع يحيا في العقول ، ولا يموت بموت أصحابه ، ونوع يموت ولا يحيا حتى لو كان أصحابه أحياء يرزقون ! فتحيا الأفكار لو أن المفكر والداعية وقف على تراث أمته ، ومقومات حضارتها ، وطوعها لتكون تعقيلا لواقعها ، وحلا لمشكلاتها المتجددة بتجدد مشكلات الحياة الإنسانية المعاصرة ، وتموت الأفكار لو بقي صاحبها بعيدا عن مشكلات أمته ، لا يعي أزماتها ، ولا يكشف لها عن أسبابها.

والنوع الذي يعنينا هو النوع الأول ؛ لأنه ألصق دوما بحياة الأمة ، وهو ما وجدناه في المصلحين والمجددين أمثال : «الإمام محمد عبده» ، و«الشيخ محمد رشيد رضا» و«الإمام الدكتور عبد الحليم محمود» ، و«الشيخ محمد متولي الشعراوي» ،

رحمهم الله جميعا ، ثم الإمام المجدد ، صاحب الفضيلة الدكتور «أحمد عمر هاشم»- أمد الله في عمره - الذي يتفق مع كل السابقين في شيء واحد هو : إدراك رسالته ؛ فيستلهم من مقومات الأمة العقائدية والذاتية ما يمكن في تحقيق مهمته في الإصلاح والدعوة والتجديد ، وبشكل يجعل هذه الأمة قادرة على مواجهة التحديات ، وخاصة أن الإسلام - أصل هذه الأمة - دين للعقل والروح معا ، وبصورة تجعله صالحا للحياتين : الروحية والمادية .

وشخصية الدكتور «أحمد عمر هاشم» نموذج فريد للمفكر الإسلامي الداعية الراقي ، والمصلح الذي يعي دوره ورسالته في رحلة الحياة ، فهو أمة وحده ؛ فقد استطاع بمفرده أولا ، ثم بمساعدة العلماء ، أن يقوم بتربية جيل ، وتكوين أمة وتبصيرها بشخصيتها ومقوماتها » .

وأما المجلد الثاني الذي عني بالكتابة عن الدكتور أحمد عمر هاشم فعنوانه : (الدكتور أحمد عمر هاشم : جهوده ومنهجه في الدعوة إلى الله تعالى) ونماذج من خطبه للأستاذ «عزت السيد إبراهيم حماد» حيث يقول : «تاريخ الدعوة الإسلامية حافل بالكثير من العلماء المجتهدين ، والدعاة المخلصين ، الذين ندين لهم بالفضل ؛ فبقيامهم بواجب الدعوة إلى الله تعالى، استحقت الأمة الإسلامية وصف الخيرية التي وصفها الله به : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[1] ، وهؤلاء العلماء - قادة الإصلاح ، ودعاة الخير والهدى - أعدهم الله تعالى في كل زمان ومكان ، وظلت منهم طائفة ظاهرة على الحق ، متمسكة به ، داعية إلى الله كما أخبر النبي ﷺ : «**لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون**»[2] .

(1) آل عمران : 110 .

(2) فتح الباري بشرح صحيح البخاري .

ومن بين هؤلاء العلماء المجددين : فضيلة «الدكتور أحمد عمر هاشم» الذي تضيء سيرته صفحات التاريخ الإسلامي ؛ فهو رائد مخلص في مجال الدعوة الإسلامية ، نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله تعالى ، فحياته كلها حافلة بالعمل الجاد في خدمة الإسلام ، وهو مع هذا غير عابئ بما يصادفه من عقبات ، كما أن عطاءه يتجدد دائما كواحد من المجددين الكبار » .

وغير ذلك من شهادات في كتابات وكتب أخرى تجتمع كلها حول أحقية هذا العالم الجليل بلقب المجدد في القرن الخامس عشر الهجري .. ولتكون عنده خاتمة الحديث عن المجددين في الإسلام في الخمسة عشر قرنا للهجرة .

* * *

ختـــام

وبعد ، فقد انتهت هذه الرحلة الممتعة مع هؤلاء المجددين في الإسلام ، التـي امتدت مكانا ، فشملت كل أقطار العالم الإسلامي : قديما وحديثا ، وامتدت زمانا حيث قاربت الأربعة عشر قرنا هجريا وأكثر من الربع قـرن . هـذه الرحلـة التي كنت فيها قارئا أكثر مني مؤلفا ، قارئا لتلال من الكتب القديمة والحديثة : العربية وغـير العربيـة ، أبحـث فيهـا عـن أي شيء يتـصل بالتجديـد : معنـاه وأهدافـه ، التحديات والصعوبات التي يواجهها ، إلى جانب البحث عن المجددين أنفسهم ، وكيف تنطبق عليهم شروط التجديد ، خاصة الذين كانوا في القرنين : الرابع عشر والخامس عشر الهجريين ، حـيث كانت هذه الكتب - التي أمـامي - تـشير مجـرد إشارات إلى التجديد، مختلطا أحيانا بالاجتهاد العلمي ، وأحيانا مختلطـا بـالتنوير ، مع أن لكل مفهوم من هذه المفاهيم الثلاثة معناه وأهدافه . أقول : مجـرد إشـارات عابرة ، إلا أنها لا يمكن تجاهلها أو تجاوزها ، بل كان الوقوف عندها طويلا حتـى ولو كانت تجيء في لمحات أو تأتي في صيغة ما قل ودل .. لتفتح بيني وبينهـا أبوابـا من التأمل والتفكير، للوقوف على ما تهدف إليـه وترقـى ، وهـل تكـون أهـدافها ومراميها لها صلة بما شرعت فيه من البحث حول التجديد والمجددين في الإسـلام في الخمسة عشر قرنا الهجرية ؟!

أقول : انتهت هذه الرحلة مع التجديد في الفكر الإسلامي في صحبة ما يقرب من الثمانين مجددا ، عاشوا فيما بين القرن الأول الهجري حتى الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجري . وكأنني بذلك قد قرأت وتأملت واستوعبت التاريخ الإسلامي كله ، منذ العصر النبوي إلى العصر الذي نعيش فيه ، مرورا بالعصور الإسلامية وغير الإسلامية التي سجلها هذا التاريخ ، وبالتحديد في جوانب محددة منها : السياسية والعلمية والاجتماعية والثقافية ، بل والدينية . وهذه الأخيرة تمثل ما نبحث عنه من التجديد والمجددين ، وكل صفحة من صفحات هذا التاريخ تؤكد على عظمة وشموخ هؤلاء الرجال الذين صنعوا هذا التاريخ ، وذلك لرقي أفكارهم ، وسمو أهدافهم . ليس فقط في مراحل تقدم هذا التاريخ وازدهاره ، وإنما أيضا في مراحل ضعفه وانهياره .

وأبحث عمن تنطبق عليه شروط التجديد بين علماء وفقهاء الأمة منذ عصر النبوة المتسم بالعدل والإنصاف الذي أرساه النبي - ﷺ - وتبعه الخلفاء الراشدون الأربعة إلى عصور مفعمة بالأسى والألم ، حين تحولت هذه الخلافة الراشدة إلى ملك مستبد عضوض ، شاد بنيانه «معاوية بن أبي سفيان» : مؤسس الدولة الأموية ، وكأنه إرث له يرثه أولاده من بعده ، وربما كان يظن أن هذا الملك الذي قام على المكر والخديعة ، الغدر والعدوان ، يدوم ويستمر هادئا مطمئنا حتى يصل إلى أحفاده ، وأحفاد أولاده حتى يرث الله الأرض ومن عليها. لكن هيهات أن يظل الجور والظلم مستمرا . فما كاد هذا الملك يستقر لبني أمية دهرا أو أكثر ، حتى انصرف عنهم؛ لأن الفتنة لم تنقض بمقتل « علي ابن أبي طالب » كرم الله وجهه ، ولا باستشهاد « الحسين » رضي الله عنه ، ولا باستقرار الملك لمعاوية ، ولا بموت ابنه يزيد ، وإنما استأنفت عنفها وشدتها

بعد ذلك ؛ فعرضت المسلمين والدولة الإسلامية لخطوب ليست أقل جسامة من الخطوب التي حدثت من قبل .

صحيح ، أنه تحققت في العصر الأموي بعض الفتوحات التي بمقتضاها انتشر الإسلام ، وامتد في بعض الممالك والبلدان ، في نظام لا يمكن أن يتجاهله تاريخ الأمم والشعوب ، ليأتي من بعده العصر العباسي ؛ لتأخذ الأرض زينتها لاستقبال الحضارة العربية الإسلامية الوليدة ، وما حققته من إنجازات في العلوم والثقافات والفنون ، بل وتنفتح هذه الحضارة العربية الإسلامية على الفكر اليوناني القديم في أوج عظمته وازدهاره من خلال الترجمات التي تمت في عصر الخليفة العباسي «المأمون» والذين بعده من خلفاء بني العباس ، ولا تقتصر فائدة هذه الترجمة على مجرد انتقال الثقافة اليونانية إلى الثقافة العربية ، وإنما تمتد هذه الفائدة إلى حيث يتم إنقاذ التراث اليوناني إلى الثقافة العربية ، وإنما تمتد هذه الفائدة إلى حيث يتم إنقاذ التراث اليوناني من الضياع ، وذلك في صورة ترجمته إلى العربية والحفاظ عليه ، وكيف كان للعرب من فضل في استرداد ما فقد من هذا التراث باللغة اليونانية . يضاف إلى ذلك دور العرب في شرح هذا التراث ، والتوسع فيه وإخصابه بالفكر العربي الإسلامي الأصيل ، مما يشهد بفضل العرب على التراث اليوناني ، هذا التراث الذي يعترف الناس جميعا بفضله - وكذلك فضل العرب - على الفكر الإنساني كله .

وجانب آخر .. لعله أهم وأشمل وهو: دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، وذلك بعد وصوله إلى الأندلس (إسبانيا) بعد الفتح العربي لها ؛ ليمتد الفكر العربي إلى بقية بلدان أوروبا عبر منطقتين على الحدود بين دار الإسلام وأوروبا، هما :

[طليطلة] في الأندلس ، والأخرى في [صقلية] وجنوب إيطاليا ، ليكون هناك دور بارز للحضارة العربية الإسلامية ، دور واسع المدى عميق الأثر ، شمل العلوم كما شمل الصناعات ، ولم يقتصر على العلوم الطبيعية والكيميائية والفيزيائية والفلك وعلوم البحار ، بل امتد كذلك إلى الأدب : الشعر منه والقصة ، وإلى الفن المعماري منه والموسيقى ؛ لتتم وفق ذلك عملية الإخصاب الفكري بين العقل العربي الإسلامي البالغ كمال تطوره ، والعقل الأوروبي الناشئ ، وهو بسبيل يقظته وتلمس طريقه ، وليصنع من بعده الحضارة الأوروبية الحديثة التي قامت على أنقاض الحضارة العربية الإسلامية .

أقول : قامت الحضارة الأوروبية الحديثة على أنقاض الحضارة العربية الإسلامية ؛ لأن أصحاب هذه الحضارة من العرب المسلمين لم يحافظوا على ما في أيديهم مما حققه الأجداد من العرب والمسلمين الأقدمين ، وإنما تهاونوا وأهملوا في ذلك ؛ مما جعل التخلف والجمود والتأخر من نصيبهم . وكان لذلك أسباب ومسببات أشرنا إليها من قبل في تناولنا لإنجازات المجددين في القرون الخمسة عشر الهجرية ، مما كان له أكبر الأثر في انقسام وتفكك الدولة الإسلامية إلى شيع وأحزاب، ممالك ودويلات ، طوائف وإمارات ، ويدب فيها الفساد والضعف في أوصالها . وفي المقابل : تبدأ أوروبا في الصعود والرقي والتقدم والتطور .

وهكذا ، وصلت الدولة الإسلامية إلى ما أصبحت فيه اليوم ، إلى درجة أن يسمعنا زماننا أن الرئيس «جورج بوش» عازم على القيام بتجديد الفكر الإسلامي ، ناسيا في غمرة جهله الفاضح أن هذا التجديد قد تم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا ،

من خلال علماء وفقهاء وأدباء وكتاب ومؤرخين ، أخذوا على عاتقهم مهمة التجديد والتنوير ، وبذلوا في سبيل ذلك التضحيات الباسلة التي وصلت إلى حد السجن والموت ، كما رأينا في الصفحات السابقة . وأن العالم الإسلامي لم يكن بعلمائه وفقهائه بغافل عن هذا التجديد ، ولا بحاجة إلى بوش أو غيره من رعاة البقر ليقوم به نيابة عن أصحابه الحقيقيين !

أقول : وأريد أن أكرر القول مرات ، بأنني استمتعت بما قرأت من مجلدات وكتب ومقالات ودراسات تدور حول التاريخ الإسلامي، والفكر الإسلامي، والفقه الإسلامي ، بحثا عن التجديد والمجددين ، سواء كان هذا التاريخ أو الفكر أو الفقه في أوج عظمته وازدهاره ، أو حتى في أوقات ضعفه وانهياره . ففي الأولى أشعر بعزة تجلل هامتي لما صنع أجدادنا من العرب المسلمين ، وفي الثانية ألمح من بين الأسى والألم بوادر الأمل والرجاء تطل من بين السطور. إذ إن هذه الأمة العربية الإسلامية التي أنجبت هذا الكم الهائل من العلماء والمفكرين والأدباء والمؤرخين والفقهاء والكتاب الذين يجتمعون تحت مظلة التجديد ، ليست بعاجزة عن أن تنجب آخرين، وتعيد أمجادها من جديد ، حتى وإن طال الزمن .

أقول : استمتعت بما قرأت ، ومن أجل هذا أحببت أن يشاركني القارئ – لما قرأت – هذه المتعة ، راجيا أن ينال الفائدة التي نلتها من وراء القراءة والتأمل والاستيعاب .

وأخيرا .. لعلني أقول بعد ذلك في ختام هذه السطور : إنني في هذا الكتاب قدمت قليلا من كثير ، كان يدور في تفكيري حول التجديد في الإسلام ورجاله ، ولكنني فضلت أن أبدأ بما أشعر أن بيني وبينه صلة رحم وقربى ، آملا أن يسمح لي

الغد إذا قدر لي أن أحياه ، فأقوم بشرف تقـديم ما قد تركت ، قاصدا أو غير قاصد ، أو تنقيح وتجميل ما هو موجود بالفعـل في طبعـة تاليـة ، أو تحقيـق مـا يـصلني مـن ملاحظات للقارئ الجاد المدقق .. تلك التي تعلو على كل اعتبـار .

والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير .

سامح كريم

القاهرة الجديدة - 2008

المراجــع

- القرآن الكريم
- الأحاديث النبوية
- الإصابة في تمييز الصحابة — لابن حجر
- السيرة النبوية — لابن هشام
- تحفة الأحباب وبغية الطلاب — للسخاوي
- بدائع الزهور في وقائع الدهور — لابن إياس
- المالك والمسالك — لابن حوقل
- النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة — لابن تغري بردي
- تاريخ الرسل والملوك — لابن جرير الطبري
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة — لابن حجر
- الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة — لابن الزيات
- الطبقات — لابن سعد
- فتوح مصر وأخبارها — لابن عبد الحكم
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب — لابن العماد
- العقد الفريد — لابن عبد البر
- تاريخ المسلمين — لابن العميد
- عيون الأخبار — لابن قتيبة
- البداية والنهاية — لابن كثير
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار — لابن فضل الله العمري
- الأغاني — للأصفهاني

– السنن الكبرى	للبيهقي
– إغاثة الأمة بكشف الغمة	للمقريزي
– الخطط والآثار	للمقريزي
– السلوك لمعرفة دول الملوك	للشعراني
– الطبقات الكبرى	للشعراني
– الطبقات الصغرى	للشعراني
– الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية	للمناوي
– مروج الذهب	للمسعودي
– مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع	لياقوت الحموي
– البلدان	لليعقوبي
– رسائل بين الإمامين: مالك، والليث بن سعد	لأحمد كمال أبو المجد
– أبو الحسن الأشعري	دراسة للشيخ محمد أبو زهرة
– تاريخ الخلفاء	لجلال الدين السيوطي
– حسن المحاضرة	لجلال الدين السيوطي
– الشفاء	لابن سينا
– القانون	لابن سينا
– الكتاب الذهبي .. إعداد جامعة الدول العربية عام 1952م	عن ابن سينا
– المنقذ من الضلال	لحجة الإسلام : أبو حامد الغزالي
– تهافت الفلاسفة	لحجة الإسلام : أبو حامد الغزالي
– تهافت التهافت	لابن رشد
– فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال	لابن رشد

- طوق الحمامة	لابن حزم
- نزهة المشتاق	للشريف الإدريسي
- الموسوعة الجغرافية	للشريف الإدريسي
- روض الأنس .. ونزهة النفس	للشريف الإدريسي
- الفتوحات المكية	لمحيي الدين بن عربي
- نصوص الحكم	لمحيي الدين بن عربي
- المقدمة	لعبد الرحمن بن خلدون
- العبر .. وديوان المبتدأ والخبر	لعبد الرحمن بن خلدون
- صبح الأعشى	للقلقشندي
- الإنصاف في بيان أسباب الخلاف	للدهلري
- الرسائل	للدهلري
- شرح أبواب صحيح البخاري	للدهلري
- التفهمات الإلهية	للدهلري
- القول الجميل في بيان سواء السبيل	للدهلري
- السيل الجرار على حدائق الأزهار	للشوكاني
- القول المفيد في حكم التقليد	للشوكاني
- المسند	لأحمد بن حنبل
- المأمون : عالم من العلماء، وأديب مع الأدباء	لجمال الدين سرور
- الفهرست	لابن النديم
- ابن سينا : فيلسوف لا ينسى	لجور وانو
- مؤلفات ابن تيمية	
- مشكاة الأنوار	لحجة الإسلام : أبو حامد الغزالي

- الكشف في مناهج الأدلة في عقائد الملة	لابن رشد
- الفصل في الملل والأهواء والنحل	لابن حزم
- الأخلاق والسير في مداواة النفوس	لابن حزم
- مناجاة	لمحيي الدين بن عربي
- المدينة الفاضلة	لأبي نصر الفارابي
- تفسير القرطبي .. الجامع لأحكام القرآن	للقرطبي
- وفيات الأعيان	لابن خلكان
- الآثار الباقية عن القرون الخالية	للبيروني
- الهند	للبيروني
- الصيادلة	للبيروني
- لسان العرب	لابن منظور
- نهاية الأرب	للوطواط
- الموطأ	للإمام مالك
- الأم	للإمام الشافعي
- إسلاميات الدكتور محمد حسين هيكل	لسامح كريم
- شرح موطأ مالك	للشيباني
- رحلات ابن بطوطة	تحقيق الدكتور عبد الهادي الغازي
- الموافقات	للشاطبي الغرناطي
- الاعتصام	للشاطبي الغرناطي
- إسلاميات طه حسين	لسامح كريم
- إسلاميات العقاد	لسامح كريم
- إسلاميات أحمد أمين	لسامح كريم

- محمد الرسول البشر لتوفيق الحكيم
- المجددون في الإسلام لعبد المتعال الصعيدي
- فلاسفة الإسلام للدكتور سعد عبد العزيز
- المؤلفات الإسلامية لعبد الرحمن الشرقاوي
- محمد رسول الله والذين معه لعبد الحميد جودة السحار
- حوار لا مواجهة للدكتور أحمد كمال أبو المجد
- فلاسفة العرب للدكتور محمد لطفي جمعة
- قادة الفكر الإسلامي للدكتور راشد البراوي
- الفلسفة الإسلامية للدكتور عبد الرحمن بدوي
- الفلسفة المسيحية للدكتور عبد الرحمن بدوي
- دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي للدكتور عبد الرحمن بدوي
- إسلاميات توفيق الحكيم إعداد الدكتور عبد الرحمن بدوي

لسامح كريم
- الكافية في النحو لابن الحاجب
- الإمام عبد الحليم محمود لمحمد شلبي
- ثلاثة حكماء مسلمين للدكتور سيد حسين نصر
- مفكرو الإسلام لكارادوفو
- أعلام الإسكندرية للدكتور جمال الدين الشيال
- السحار .. والفكر الإسلامي لمأمون غريب
- جمال الدين الأفغاني لعبد الرحمن الرافعي
- عبقري الإصلاح والتعليم : محمد عبده لعباس محمود العقاد
- أم القرى لعبد الرحمن الكواكبي
- طبائع الاستبداد، ومصارع الاستعباد لعبد الرحمن الكواكبي

- الأعمال الكاملة للكواكبي	تحقيق للدكتور محمد عمارة
- الرحالة ك	لعباس محمود العقاد
- الإسلام والحضارة العربية	لمحمد كرد علي
- الإسلام ، وأصول الحكم	لعلي عبد الرازق
- أيام لها تاريخ	لأحمد بهاء الدين
- الإسلام والخلافة في العصر الحديث	للدكتور محمد ضياء الدين الريس
- من هنا نبدأ	لخالد محمد خالد
- رجال حول الرسول	لخالد محمد خالد
- أفكار في القمة	لخالد محمد خالد
- حديث رمضان	للإمام مصطفى المراغي
- محاضرات في الفلسفة الإسلامية	للشيخ مصطفى عبد الرازق
- الفكر الإسلامي	للدكتور إبراهيم بيومي مدكور
- الفلسفة الإسلامية	للدكتور إبراهيم بيومي مدكور
- الإسلام في شبه القارة الهندية	للدكتور عبد المنعم النمر
- مالك بن أنس	لأمين الخولي
- المجددون في الإسلام (في أربعة قرون)	لأمين الخولي
- تقديم كتاب (ذو القرنين) لأبي الكلام آزاد	لأحمد حسن الباقوري
- أبو الكلام آزاد	للدكتور عبد المنعم النمر
- كتابات العبادي التاريخية	للدكتور جمال الدين الشيال
- ابن بطوطة	للدكتور محمد مصطفى زيادة
- معاني القرآن بين الرواية والدراية	لأحمد حسن الباقوري
- قطوف من أدب النبوة	لأحمد حسن الباقوري

- من أعلام العصر .. كيف عرفت هؤلاء ؟	للدكتور محمد رجب البيومي
- مواقف الغزالي من قضية تخلف المسلمين	للباحث إبراهيم طلبة حسين
- الخصائص الفنية لمقالات الشيخ الغزالي	للباحث خالد كمال
- الشيخ الغزالي : شاهد على العصر	للباحث الدكتور محمد مورو
- من هنا نعلم	للشيخ محمد الغزالي
- أعمال ومواقف الغزالي	دراسة للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي
- أجزاء معجزة القرآن	للشيخ محمد متولي الشعراوي
- مصريون معاصرون	للدكتور محمد الجوادي
- الشعراوي مفكرا	لمحمود مهدي
- عمر بن عبد العزيز	دراسة للدكتور وليد قمحاوي
- الخطط التوفيقية	لعلي مبارك
- أدب مصر الفاطمية	للدكتور محمد كامل حسين
- الطرق الصوفية في مصر	للدكتور عامر النجار
- الحركة الصوفية في الإسلام	للدكتور محمد علي أبو ريان
- الأعلام	للدكتور زركلي
- عظماء الإسلام	لحسن النشار
- محمد عبده	للدكتور عثمان أمين
- الفلسفة الأخلاقية في القرآن	للدكتور محمد عبد الله دراز
- المدخل إلى القرآن الكريم : عرض تحليلي مقارن	للدكتور محمد عبد الله دراز
- مؤلفات أبي الأعلى المودودي	
- مؤلفات أبي الحسن الندوي	

- مؤلفات وحيد الدين خان	
- تاج العروس	للزبيدي
- تجريد العقائد	لنصير الدين الطوسي
- الشامل في الطب	لابن النفيس
- رسالة في الأعضاء	للدكتور يوسف زيدان
- الحكم	لابن عطاء الله السكندري
- الأبناء العظام	لرأفت الخياط
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء	لابن أبي أصيبعة
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب	لعبد القادر البنداري
- اتباع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والأتباع	للمقريزي
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب	للقلقشندي
- مؤلفات عبد الحميد جودة السحار الإسلامية	
- التيار الإسلامي في قصص السحار	للدكتور صفوت يوسف زيد
- أحمد بن حنبل	دراسة للشيخ محمد أبو زهرة
- الإبانة	لأبي الحسن الأشعري
- اللمع	لأبي الحسن الأشعري
- مصطفى عبد الرازق	دراسة للدكتور عثمان أمين
- مساجد مصر	للدكتورة سعاد ماهر
- حول التجديد في الفكر الإسلامي	مقال بالمصور للدكتور عبد المعطي بيومي
- دائرة المعارف الإسلامية المترجمة	
- الموسوعة العربية الميسرة	
- الشريف الإدريسي	دراسة لمحمد عبد الله عنان

- مقالات التجديد في الإسلام من عام 1987 إلى عام 2006م — لسامح كريم
- دائرة معارف القرن العشرين — لمحمد فريد وجدي
- مناهج تجديد — لأمين الخولي
- مع النبي في رمضان
- قمم وأفكار إسلامية — لسامح كريم
- أعلام في التاريخ الإسلامي في مصر — لسامح كريم
- أعداد من مجلة العربي الكويتية
- أعداد من مجلة تراث الإنسانية
- مفكرون وأدباء من خلال آثارهم — لأنور الجندي
- الشيخ المراغي بأقلام الكتاب — إعداد : أبو الوفا المراغي
- فجر الإسلام — لأحمد أمين
- قادة الفكر الإسلامي — لعبد الله بن سعد الرويشيد
- شخصيات صوفية من صعيد مصر في العصر الإسلامي
- الإسلام في القرن العشرين — لعباس محمود العقاد
- البغية — للسيوطي
- معجم البلدان — لياقوت الحموي
- نثار الأزهار — لابن منظور
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري — لابن الأثير
- الكامل — للمبرد
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير الأعلام — للذهبي، تحقيق : محمد محمود حمدان

- الكبائر للذهبي — تحقيق : محمد محمود حمدان
- عصر محمد علي — لعبد الرحمن الرافعي
- مخطوط للدكتوراه عن محب الدين الخطيب — لمحمود فوزي محمود
- بحث عن محب الدين الخطيب — للدكتورة سهيلة البرماوي
- الطهطاوي قبل قاسم أمين في الكتابة عن تحرير المرأة — بحث للدكتور محمد محمود الدش
- الأوزاعي : إمام أهل الشام — بحث للدكتور زهدي يكن
- ابن طفيل — بحث لمحمد عبد الله عنان
- الإمام مسلم — بحث للشيخ محمد أبو زهرة
- الطبري — بحث لمحمد خليفة القوسي
- القزويني — بحث للدكتور عبد الحليم منتصر
- الماتريدي — بحث للدكتور فتح الله خليف
- توجيهات الشيخ شلتوت — للإمام محمود شلتوت
- مذكرات القرضاوي — لبدر محمد بدر

* * *